

أدب وفن

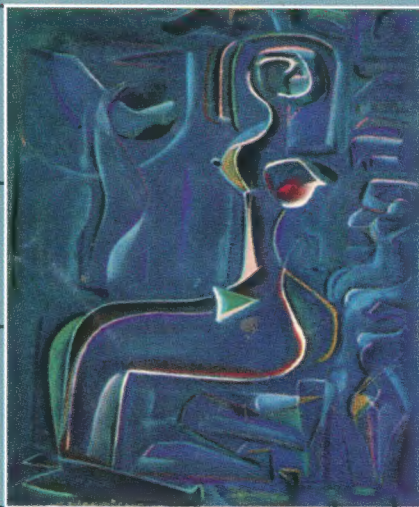
مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

يناير ٢٠٠٤ - العدد ٢٢٧

ردونسون: المستشرق المحب.. وداعاً

ثورة «ماو» الثقافية: اطلبوا الشعور ولو في الصين

السينما الإيرانية:
مرارة.. قهر
وشوق للحرية



مؤسس الرزاز:
تراجيديا
تلملم الشظايا

الشخصية العربية تقليدية .. حديثة

محمود إسماعيل / كاميليا صبحي / البرتومورافيا
وحيد النقاش / سميحة خريس / طلعت الشايب
هاشم غرايبة / عاطف أحمد / سيف الرحبي



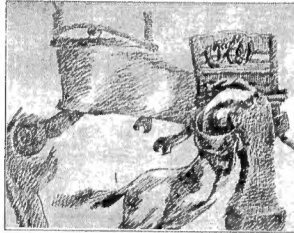
آدب و نقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شعبية يمددها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الواحدة والعشرون

العدد ٢٢٧ / يوليو ٢٠٠٤



رئيس مجلس الإدارة: د. رفعت السعيد

رئيس التحرير: فريدة النقاش

مدير التحرير: حلمي سالم

سكرتير التحرير: عيد عبد الحليم

مجلس التحرير : إبراهيم أصلان / أحمد الشريف

د. صلاح السروي / جرجس شكرى / طلعت

الشايب / د. علي مبروك / علي عوض الله / غادة

نبيل / كمال رمزي / مصطفى عبادة /

ماجد يوسف

المستشارون

د. الطاهر مكي / د. أمينة رشيد
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون
د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر
محمد رومي / ملك عبد العزيز

تصميم الغلاف أحمد السجيني
أعمال الصف والتوضيب نسرين سعيد إبراهيم

تصحيح : أبو السعود علي سعد
لوحة الغلاف الأمامي الفنان ممدوح سليمان والغلاف الخلفي الفنان تاد
الرسوم الداخلية الفنان د. سيد القماش .

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا
شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر
يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدي أو البريد الإلكتروني:

adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الإنترنت: adabwanaqd.4t.com

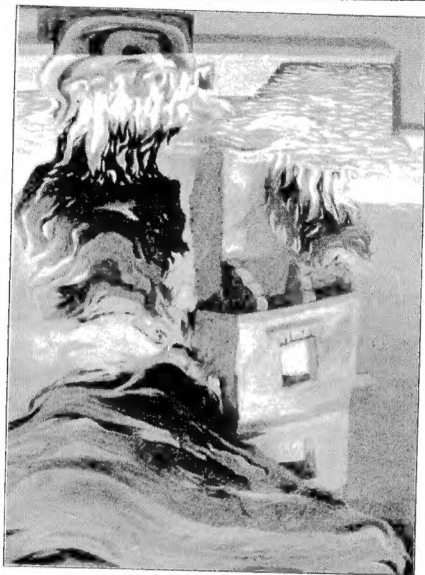
ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر
صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة
المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالي
القاهرة / هاتف ٢٩ / ٥٧٩١٦٢٨ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

محتويات العدد

- * أول الكتابة ٥ الحرية
- * مكسيم رودنسون .. وداعاً / تحية / د. محمود إسماعيل ٩
- * رودنسون وآليات التلقى والتفاعل / تحية / د. كاميليا صبحي ١٦
- * فقرات من كتاب « محمد » / ترجمة / ك. ص. ٢٠
- * ثورة « ماو الثقافية » حوار حول الصين / ألبرتو مورافيا / ترجمة وتقديم وحيد النقاش ٢٧
- * مورافيا وثورة « ماو » الثقافية / كتاب / أحمد الشريف ٤٧

• الديوان الصغير

- * أكثر من صمت " اطلبوا الشعر ولو في الصين / شعر هاجين / ترجمة طلعت الشايب ٥١
- مؤنس الرزاز .. وسيرته الجوانية / ملف / ٧٣
- * علي بن أبي طالب مثالي الأعلى / حوار / هاشم غرايبه ٧٤
- * رحلة أخيرة سعودي قبيلات ٨٥
- * رصد الشظايا العربية سميحة خريس ٩٢
- * شهادات عن الرزاز ١٠٠
- * سيرة ذاتية ١٠٣
- * الشخصية العربية بين التقليدية والحداثة / فكر / د. عاطف أحمد ١٠٥
- * صفحات من كتاب النزعات المادية / ذاكرة الكتابة / د. حسين مروة ١١٣
- * نساء إيران : مرارة وقهر وشوق للحرية / سينما / أمينة فهمي ١٢٢
- * يد في آخر العالم .. ورهان الذاكرة / نقد / عيد عبد الحليم ١٢٨
- * بياض يزهر بالملانكة / شعر / أمال موسى ١٣٣
- * نهاية / شعر / محمد السيد إسماعيل ١٣٥
- * والدي / شعر / سمير الأمير ١٣٦
- * لحظة سحر / قصة / أحمد سعيد ١٣٧
- * كتب ١٤٠ التحرير
- الصفحة الأخيرة / نحو مؤسسة للدراسات النقدية والفكرية د. ملاح السروي ١٤٤



فنان العدد

-السيد القماش

-مواليد ١٩٥١ -مدينة طنطا محافظة الغربية

-أستاذ التصوير الجدارى المساعد بكلية الفنون الجميلة-جامعة المنيا

-حصل على درجة دكتوراة الفلسفة فى الفنون الجميلة عن بحثه " مشاهير التجديد فى التصوير الجدارى عند جويا"
١٩٨٧.

-عمل رئيسا لقسم التربية الفنية بكلية المعلمين بـأها بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٩٩.

-حصل على ٣٦ جائزة دولية ومحلية منها " جائزة الاستحقاق فى التصوير ١٩٨٦، ميدالية ترينانى هولندا ١٩٩١

، الجائزة الأولى فى الحفر بينالى الاسكندرية ١٩٩٤، جائزة الشراع الذهبى بينالى الكويت ١٩٩٦.

أول الكتابه هريده النقاش

إن أحدنا منا ، نحن وأنت لم يتخذ قرارا بأن يفعل ، فكل قراراتنا رتود أفعال لقرارات
إتخذها لنا غيرنا بالوكالة عنا ، وبتون الرجوع إلينا لأننا إستتمنا إلى التهميش واستمرنا
السكون والانتقايه ، وترك كل منا حياته ليديرها له الآخرون كيفما شاؤوا ..

هكذا يخاطب أحد المسئولين عن جماعة تسمى نفسها " جماعة مكافحة العجز والندس "
مواطننا بسيطا ماشى جنب الحيط يدعى " منصور عبد الرزق " .. وكما هو واضح فإن معانى
اسمه مبطنه بسخرية عميقة ، فليس هناك أى نصر فى حياة هذا الإنسان الصغير الذى يختاره
الروائى " سعيد سالم " بطلا لعمله الجديد " الشئ الآخر " ، بل إنها الهزيمة الشاملة ويوسعنا
أن نقرأ فى مفتتح الرسالة التى توجهها الجماعة الجديدة تشخيصا لحالة التبعية لقوى أخرى
تتجسد فى حياة فرد فاقد الإرادة " لم يتخذ قراراً بأن يفعل " لأنه مهزوم مهمش ومنقاد يقرر له
الآخرون أمور حياته ومصيره.

فما هى هذه القوى الأخرى التى تقوينا وتهمشنا وتسلبنا إرادتنا ، وتدفع بنا دفعا إلى
العجز والندس حتى نتجد مجموعة من الناس لزاما عليها تأسيس جماعة لمكافحة هذين الدائين :
العجز والندس وقد فاض بها الكيل كما فاض بنا جميعا.

إختار الكاتب أن يمنع للفساد الذى تسلل حتى إلى الماء والهواء فى حياتنا معنى سحرى ..
فهو الندس الذى يلوث الأيدى والأخلاق والعقول .. وحين يشكل مع العجز هذا المركب الذى ينخر
واقعنا كصدأ متراكم نجد أنفسنا مشلولين أو أشبه ، محاصرين بين ضعفين ، ضعف الحكم
القائم وعجزه عن الخروج من الأزمة الشاملة التى تعيشها البلاد بكل مظاهرها السياسية
والاقتصادية والثقافية والأخلاقية ، وضعف الحركة الوطنية الشعبية الطامحة لتغيير الوضع
القائم بعد أن فقدت الثقة فى إمكانية الإصلاح وخذعتها طويلا دماواه ، وعن طريق هذا التوازن
بين الضعفين تنهال علينا مشاريع " لإصلاح " من الخارج.

أعرف أنكم سوف تتزعجون من ضمير الجمع ، هنا لأننا لسنا جميعا متساويين فى المسئولية
صاحل بنا ، وإن كنت أجد أننا جميعا مسئولون بدرجات متفاوتة عما وصلنا إليه الذين سكنا
والذين قالوا فخار بيكسر بعضه وحتى الذين قاوموا ثم يسوا .

نعم يتحمل نظام الحكم المسئولية الرئيسية باعتباره مالكا للسلطة والثروة ، يسن القوانين ويبث الدعايات الكاذبة عن عالم وردى متجانس بينما يدور إقتتال أهلى مخفى يمزق أحشائنا تمريقا . ولكن المثقفين النقيدين مسئولون أيضا لأنهم خدعوا خديعة كبرى حين اكتفوا بذلك الهامش المحدود للحريات الذى انتزعته حركة الشعب بجهد جهيد ، واستكانوا لفكرة تقول أن حرية التعبير يمكن أن تكون كلاما ، ثم فوجئوا بأن للكلام حدودا .. وأن الكلام يمكن أن يؤدي ببعضهم إلى السجون بينما المعتقلات مكتظة بألاف من زهرة شباب الوطن. ويعرف الجميع هذه الحقيقة التى تبت الخوف فى القلوب وتجعل كل " منصور عيد الراتق " حين يسر لنفسه بها يمشى جذب الحيط .. وكل مثقف يحسد نفسه لأن بوسعه أن يقول كلاما بينما آخرون مرميون فى أقبية السجون فيحمد الله لأنه أفلت من هذا المصير ثم يجرى حساباته المعقدة حول حدود التعبير بالكلام متسائلا وهو محق ، ماجدوى الكلام باللسان ؟ هو يلجأ للنضال كما يسميه الدكتور محمود إسماعيل فى كتابه " المهمشون فى التاريخ الإسلامى " وهو فى مجال البحث عن إجابة ضمنية لهذا السؤال الشائك ، لماذا لا يؤثر المصريون رغم أن مايجرى لهم الآن يمكن أن يشعل الحرائق ، ولماذا ندرت الثورات فى التاريخ المصرى قديمه ووسيطه وحديثه - برغم تعرض مصر أكثر من غيرها - لحكومات أجنبية ؟

وسوف يأتينا الرد عالا : إن مصر لم تعد منذ أكثر من نصف قرن خاضعة لحكومات أجنبية .. وحينها سوف يرد عاجلاً الباحث الكويتى وعالم الاجتماع " خلدون النقيب " قائلاً عليكم أن تعرفوا أن هناك إستعماراً خارجياً وإستعماراً داخلياً .. والإستعمار الداخلى يعتبر مصر "إقطاعا خاصا " مثلما فعل أفراد البيت الأيوبي إبان حكم " صلاح الدين " الإقطاعى العسكرى الكردى " وعلى غرارهم سلك الولاة والقضاة والجباه . فهما هو أحدهم يعتبر الإمارة تجارة ، ومن ثم سرق الأموال " وخان فيما تولاها " وما هو أحد القضاة يحصل على " أموال جلية " برغم قصر فترة ولايته بل إن أموال الجيوش والأوقاف والصدقات نهبت نهبا ، وأسلوب الاحتكار أزهق التجار وقضى على صغارهم ، وكانت الوظائف العامة تباع وتشترى ، أما عن البذل والرشاوى والبريلة فحدث ولا حرج ..

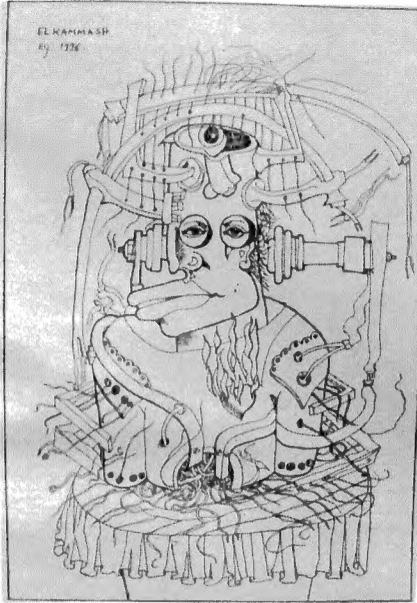
وكان الباحث يصف حالتنا الآن .. فماذا عن المثقفين فى ذلك العصر الوسيط ؟
حث فقهاء السلطات العامة على طاعة الملك وذل الجانب وراجت أيديولوجيات " التخدير الدينى " وديرها السلبى حيث ساد الاعتقاد بأن " سلطان غشوم لافتنة ولاتنوم " أى التعويل على الزمن

باعتباره طوق النجاة وطريق الخلاص .. فهل يعول المصريون الآن على الزمن ؟
وقد كان فقهاء السلطان فى كل زمان ومكان يقومون بأدوار مشابهة ، ولكن كان هناك وممايزال هؤلاء المثقفون النقديون الذين يراهنون على وعى الكادحين وقدرتهم على إحداث التغيير ، ويعرفون أكثر من غيرهم ، وحيث المعرفة مسئولية ويور.. وقيل قرن من الزمان قالت المفكرة الماركسية "روزا لوكسمبورج " إذا إمتلك كل السكان المعرفة فربما لن يصمد النظام الرأسمالى أكثر من ٢٤ ساعة .. وقد أغرقت "روزا" المناضلة فى التفاؤل ربما لأن وسائل الإعلام فى زمانها لم تكن قد بلغت من القوة والجبروت مابلغته الآن وحيث تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية وحدها على مايزيد على ٦٠٪ من الإعلام العالمى ، ويختلف شكل التبعية ومحتواها إذ يتفاعل الاستعماران الخارجى والداخلى ويتبادلان الأدوار.

وأكثر من أى وقت مضى يصبح العمل الجماعى ضرورة ، والمثقف الفرد الوحيد عاجزاً عن إحداث التأثير المطلوب ، ومدعواً طيلة الوقت كى يتواصل مع آخرين ويعملوا معا . وهنا سوف نجد أنفسنا أمام الحصاد المر لسياسات التبعية والطفيلية والفساد " والعجز والدنس " التى حطمت بشكل منهجى طويل المدى روح الملكية العامة والعمل الجماعى فى سياق الإضعاف المنظم للدولة القومية وعوامل قوتها وتحولها إلى مجرد شرطى منجج بأحدث الأسلحة الأمريكية لقمع الشعب ومحاصرة حركته وإرهابه بعد أن أدت سياسات السوق الحرة العدمية إلى إطلاق قانون الغابة حيث يأكل الكبير الصغير ويتصارع البشر كالحيوانات بعد أن جرى تعطيم منظماتهم أو تأميمها فى مفارقة مع حالة الخصخصة التى تجرى على قدم وساق لكل ماهو عام ، وبعد أن تمت دون إبطاء إعادة توزيع الثروة القومية بين العمل ورأس المال لصالح الأخير ، فقد كانت عوائد العمل حتى سبعينيات القرن العشرين تمثل ٥٠٪ ،وعوائد رأس المال ٥٠٪ ، الآن تمثل عوائد العمل ٢٣٪ وعوائد رأس المال ٦٧٪ . وتتآكل الأجور الهزيلة يومياً أمام وحش التضخم والاستغلال الكثيف ، بل ويتآكل معنى العمل نفسه ويصبح مثاراً للسخرية لأن النهب هو سيد الموقف ، والجيابة هى شعار الدولة البوليسية التى لم تفقد استقلالها وحده أمام الهيمنة الأمريكية ولكنها فقدت أيضاً هيبتها كممثلة لامة عريقة وحضارة قديمة ، وأصبح رأس مال المصريين الرسمى يتآكل بدوره فيمشون " جنب الحيط أفرادا يائسين لا أمل لهم ولا مستقبل لابنائهم ولاضوءاً شحيحاً فى النفق المظلم الذى دفعهم إليه " العجز والدنس والخراب.

يسألنى طبيبى كيف سنخرج مما نحن فيه ؟ ثم يضيف لقد قدمت أوراقى وأسرتى للهجرة إلى

EL HAMMASH
1938



كندا فرغم أنني أعيش في مستوى لا بأس به لا أجد بابا واحدا مفتوحا للخروج ولا للأمل.
وبعد أن تداولنا طويلا حول أوضاعنا ، وبعد أن سأل سؤالا يبدو سانجا لماذا لا يكتفى كل
واحد من هؤلاء اللصوص بمليار جنيه فقط ، هل كان ضروريا أن يسرقوا كل شيء؟ وافقني أننا
لو هاجرنا جميعا. أو من استطاع منا .. لن يكون ذلك حلا ، وتواعدنا أن نبحث معا عن أمل
يجمعنا ..

إنها الصورة القائمة - الواقعية - لحالتنا فكيف إذن سنخرج .. نحن مطالبون جميعا بالإجابة.

المحررة

مكسيم رودنسون... وداعا .. !!

د. محمود إسماعيل

أحسب أن هذا المقال المبسّر أعجز من أن يوفى « رودنسون » حقه ، لا من حيث كونه مفكرا ماركسيا أسهم - مع غيره - بجهد نظري فى إثراء الفكر الماركسى وتطويره - تأسيسا على المضمون العام للماركسية نفسه - للماركسية من خلال دراسات معمقة فى حقل الاجتماعيات والإنسانيات ليواجه مشكلات مجتمعات متغيرة ، ويقدم الفكر الماركسى « طوق نجاة » للعالم النامى على وجه الخصوص ، سيما بعد وقوع متغيرات دولية خطيرة على الصعيد العالمى خلال العقد الأخير.

أحسب أيضا أن هذه السطور التى يدبجها مؤرخ عربى ماركسى عاجزة عن تعداد مواقف رودنسون - المتسقة مع فكره العلمى و« الهيومانى » - إزاء قضايا ومشكلات العالم العربى المعاصر ، تلك المواقف المنحازة - عن علم ودراية وأمانة علمية - للعالم العربى فى مواجهة الهجمة الإمبريالية الصهيونية التى تستهدف العرب والمسلمين عقيدة وثقافة وهوية

حضارية، إلى جانب المقاصد الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية بطبيعة الحال.
أحسب - أخيراً - أن القارئ العادي - وحتى المثقف العربي ستأخذ الدهشة من مجرد تقديم هذه السطور ثابينا لرحيل مفكر « شبه مجهول » بالنسبة للقراء . وحتى الذين يعرفون عنه شيئاً إنما وقفوا عليه من خلال حملة ضارية على كتابه « محمد » (ص) ، أضمرت إدارة الجامعة الأمريكية « بالقاهرة ، نيرانها ، وأجبتها تشنجات « المعتمين » من مشايخ الأزهر . وقد يكون موقف إدارة الجامعة من المصادرة على تدريس الكتاب بها مبرراً ، لكون مؤلفه ماركسياً يناهض بفكره ومواقفه المعلنة سياسات الغرب ، خصوصاً الولايات المتحدة إزاء العالم العربي . أما مايثير الدهشة حقاً ، فهو موقف الأزهر غير المبرر بحجج أو قرائن اللهم إلا أن مؤلف الكتاب « يهودي » يشوه صورة نبي الإسلام !! وأو اطلعوا على الكتاب حقاً ، لأتركوا خطأ هذا الزعم ، وهو ماستثبته بعد في ثلثيا المقال .

ولن يجهل « مكسيم رودنسون » نقول إنه مفكر وعالم اجتماع ومؤرخ فرنسى ولد عام ١٩١٥ ، وتوفي عام ٢٠٠٤ . ينتمى إلى أسرة يهودية روسية رقيقة الحال ، فقد عمل « ساعياً » بإحدى المكاتب ونشأ نشأة عصامية ، فنهل من علوم العصر الاجتماعية والإنسانية بمجهوده الخاص ، الأمر الذى أهله للعمل بالأكاديمية الوطنية بباريس عام ١٩٣٧ بعد اجتياز امتحان شاق . ثم انضم لعضوية الحزب الشيوعى الفرنسى وأصبح من أشهر منظريه المجددين فى مجال « الماركسيولوجى » . عاش فى لبنان قرابة سبعة أعوام درس إبانها اللغة العربية وأجادها فضلاً عن بعض اللغات السامية الأخرى . وزار القاهرة وبعض العواصم العربية الأخرى ، حيث تعمق فى الدراسات الإسلامية ، الأمر الذى أهله لتدريسها بجامعة السوربون . وقدر له الإشراف على الكثير من الرسائل الجامعية فى هذا الحقل لبعض الدارسين العرب ، ومن أشهرهم المفكر المغربى « عبد الله العروى » . كما كان منزله - بمكتبته الزاخرة - موئلاً للدارسين والمثقفين العرب المعاصرين ، ممن أدركوا قيمة فكره وعلمه كمتخصص فى الدراسات العربية الإسلامية .

أما عن أهم مؤلفاته فى هذا الصدد ، فمنها كتابه « محمد » الذى قدم فيه « سيرة » علمية موضوعية كشفت عن مكانته « كرجل دولة » من الطراز الأول ، وأبانت عن « عبقرية » فذة أفضت إلى ثورة إجتماعية إنسانية غيرت وجه التاريخ . وفى هذا الصدد عول على « المنهج المادى الجدلى التاريخى » ، وبفضله وضع حداً للروايات المنقبية والأسطورية والتيلوجية والخرافية الموروثة عن « ابن إسحق » .

بفضله أيضا ، فند الأحكام الاستشراقية الكلاسيكية التي حاولت أن تتال من شخص الرسول (ص) والإسلام في آن .

وفى كتابه « الماركسية فى العالم الإسلامى » ، قدم « بانوراما » تاريخية عن التاريخ الإسلامى لتعالج الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وفق رؤية مادية تاريخية . والأهم ما انطوى عليه الكتاب من الكشف عن غاية مؤلفه ، وهى إثبات أن « الماركسية » لاتتعارض مع الإسلام ، فالعدالة الاجتماعية غاية مشتركة للإسلام والماركسية .. لينتهى إلى أن نهضة العالم الإسلامى وتحريره من الإمبريالية والتبعية الثقافية منوطه بالربط بين مبادئ الإسلام العامة وبين الصياغة العلمية الماركسية لهذه المبادئ ، وهو أمر منوط باجتهادات فقهاء المسلمين وترشييد الماركسيين العرب المهمومين أساسا بالجدل النظرى والسفسطات الأيديولوجية .

وينطوى كتاب « العرب » على تأريخ « بانورامى » أيضا للعالم العربى المعاصر ، أفاد فى صياغته من خبراته العملية وتجاريه العيانية ، وأثبت أن التاريخ العربى الوسيط والحديث جزء من تاريخ البشرية ، ومن ثم يخضع للقوانين العامة المحركة للتاريخ ويتميز الإنجاز بدحض أحكام الاستشراق الكلاسيكى عن التكوين " الإثنى " و " الطائفى " و " النسمى " - الروحى - الذى يحكم على حاضر ومستقبل العالم العربى بالعجز والتخلف ، وعلى العكس يرى فى الإسلام ثورة تاريخية وحضارية أثبتت أخطاء مؤرخى الغرب عن « المعجزة اليونانية » ونظرية « مركزية الحضارة ».

ويعد كتابه عن « الإسلام والرأسمالية » أهم ماكتبه فى حقل الإسلاميات لعدة أسباب ، نوجزها فيما يلى:

أولا : دحض الفكر الاستشراقى الذى يحمل الإسلام مسئولية تخلف العالم الإسلامى قديما وحديثا ، ونفى عنه الحكم الجائر بأنه المسئول الأول عن عدم إنجاز « ثورة رأسمالية » قديما أو حديثا . وأثبت أنه فى ظل الإسلام حدثت ما أسماه « ثورة رأسمالية » - أى رأسمالية غير مكتملة - كانت من وراء ازدهار الحضارة الإسلامية التى مثلت - فى نظره - حضارة العالم فى العصور الوسطى .

ثانيا : اعترف « رودنسون » بخصوصية - إيجابية - للإسلام تميزه عن سائر الديانات ، من حيث كونه « عقيدة وشريعة » فى آن . ويرى فى حقيقة عدم نص الإسلام عن شكل معين للسلطة ونمط محدد للاقتصاد ، توكيدا على « جدلية » و « واقعية » ووعيه بقوانين « الحركة » و

الصيرورة، المفضية إلى « التغيير » المستمر . بينما طرح مبادئ عامة يمكن على هديها مواكبة ومواجهة مشكلات التغيير والتطور.

ثالثا: استهداف المؤلف الإفادة من هذه الحقائق الصاعدة لتحقيق غاية - أو ما أسماه «خدمة» - مفادها عقد وثام بين المبادئ الإسلامية ، وبين صياغتها العلمية ممثلة فى «الماركسية» ويمكن استثمارها فى مشروع نهضوى عربى معاصر.

والأخطر من ذلك والأهم ، هو استثماره حقيقة مايجرى - الآن - من فرض هذا المشروع من « الخارج » ، مفيدا فى هذا الاستشراف المستقبلى من « المادية التاريخية » التى تؤهل المؤرخ النابه إلى « التاريخانية » ، أى استشراف المستقبل.

ولكسليم رودنسون دراسات أخرى فى التاريخ الاجتماعى الإسلامى ، من أطرفها كتابه المعنون « المطبخ العربى » الذى يشى بأهمية التوجه لدراسة « مفردات » التاريخ الاقتصادى- الاجتماعى الذى تبنته « مدرسة الحوايات » ، انطلاقا من فهم وعى بالمبادئ العامة للمادية التاريخية ، إلى جانب محاولة تطويع قوانينها فى مجالات البحث التطبيقى « الأمبريقى » .

أما عن دراسته الهامة عن « الغرب والإسلام » ، فهى دراسة جد هامة من حيث إثباتها أن نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين إرتبطت بطبيعة « عقلية » الغرب ، التى تشكلت بدورها نتيجة التطور السوسيو- تاريخى ، ومن ثم السوسيو - ثقافى لتاريخ وحضارة الغرب . وكشف عن حقيقة ارتباط نظرة العداء من قبل الغرب بالرؤية الكنسية « اللاهوتية » التى أفرزها الإقطاع « الفيودالى » ، بينما أسهمت الثورة البورجوازية الأوروبية فى تغيير تلك النظرة نتيجة تطورة العقل الليبرالى الغربى ، فأصبحت نظرة تقدير - بل إعجاب - مالبثت أن تحولت مرة أخرى إلى العداء والتحقير كنتيجة لحركة الاستعمار الأوروبى الذى أفرز « عقلية الاستشراق ».

ولكسليم رودنسون دراسات أخرى كثيرة عن تاريخ وحضارة العالم العربى المعاصر ، محاولا الربط بين الماضى والحاضر . مستهدفا من ذلك - فى التحليل الأخير - استشراف مستقبل العالم العربى ، مغولا على الإفادة من « التراث » وريطه بالماركسية كطوق نجاة للخلاص من سطوة الإمبريالية.

نستخلص مما سبق أن كتابات « رودنسون » تدور حول ثلاثة محاور ثلاثة مترابطة ومتداخلة هى الغرب ، الإسلام ، الماركسية . إذ يرى أن الغرب فى سياسته إزاء العرب والمسلمين « متآمر » برغم دعاويه عن الحرية والعمانية والديمقراطية ، وأنه من أجل مصالحه الاستراتيجية يحرص على استمرار « تبعية » و« ذيلية » العرب ثقافيا للثقافة الغربية.

أما الماركسية ، فقد أسهم في تجديدها - من داخلها - حتى تظل موبلا لخلاص الإنسانية.

وفي هذا الصدد ، يرى أن برغم انهيار « الكتلة الاشتراكية » فإن الماركسية تظل مكتسبا علميا للبشرية ، وأن معارفها « علم إنساني » أعدته حقائق التاريخ الاجتماعى بعيدا عن الأيديولوجيا . " فالديالكتيك " - فى نظره - قادر على استيعاب المتغيرات والمستجدات كافة . فى هذا الصدد أيضا ، يفيد من دراساته كعالم اجتماع فى التمييز بين الماركسية كفلسفة وكأيديولوجيا وكعلم ، ويؤكد أن " الماركسيولوجى " غدا " ثابتا ومستقرا " ، وهو أمر لا ينكره عليها أكثر خصومها . ويذهب إلى أن هؤلاء الخصوم يأخذون بنظرياتها بوعى أو بدونه . وفى الحالىن معا تأكيد على " أنه ما يزال ذا معنى أن يعلن المرء أنه ماركسى على صعيد الدراسات العلمية الاجتماعية .. لأن الكثير من إنجازات الماركسيين فى هذا المجال قد ضمت إلى العلم وأصبحت جزءاً منه ».

والسؤال : لماذا لم يحقق المفكرون العرب - وحتى الماركسيون منهم - بفكر « رودنسون » ، بينما يهللون لـ « سخافات » ، « جارودى » ؟ إذ نعلم أن الأوساط العربية الثقافية - وحتى الأزهر - يهللون لجارودى إلى حد الزعم بأنه « اعتنق الإسلام » ، وهو مالم يحدث . فما حدث هو أنه « يتاجر » بالإسلام بغية منافع خاصة ، وسفرياته إلى نول « البترو - دولار » لاتخلو من مغزى . وجوهر كتاباته تؤكد هذا الجانب التفعى (وقد سبق لنا تعرية هذا الجانب فى دراسة بعنوان « جارودى والإسلام والاشتراكية » ، نشرت فى مجلة « الفكر المعاصر » ، عام ١٩٧٠) . هذا فضلا عن تخليه عن الماركسية ، بل إنه فصل من الحزب الشيوعى الفرنسى باعتباره « ملفقا » .

بينما نجد فى تاريخ حياة « رودنسون » ماينم عن موقف أخلاقى ، فلم يتكسب بفكره - ولا بمواقفه - من العرب أو غير العرب ، وقد أعلن مرارا أن « دفاعاته » عن الإسلام تاريخا وخضارة ينبع من موقف علمى وأخلاقى ليس إلا . ومقدمات كُتِبَ تلج على أنه « مواطن فرنسى » فى التحليل الآخر . ويعلم ذلك تلامذته من الدارسين العرب أو من المثقفين العرب الذين عاشروه وخبروا منطلقات فكره ومواقفه فى مناصرة الحق العربى ، إلى حد تهديده مرارا بإشهار سلاح « معاداة السامية » !!!

أما عن كونه يهودياً ، فقد أعلن مرارا أيضاً أنه « علمانى » معاد للصهيونية ، إلى حد أنه رفض « الختان » على الطريقة اليهودية !!

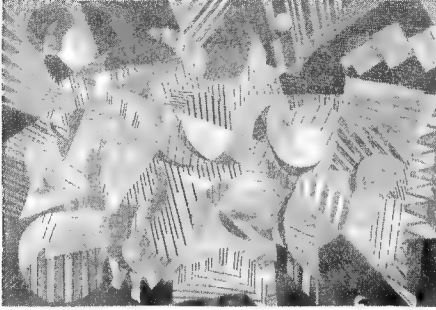
فلماذا هذا الموقف « الساكت » من المثقفين العرب . وبعضهم يعلم أن « رودنسون » ظل طوال عمره مدافعا عن قضايا العرب بنزاهة وموضوعية عالم الاجتماع السياسي ؟

لقد ذكر « رودنسون » في مقدمة كتابه « الإسلام والرأسمالية » أن أفكاره ومواقفه إزاء القضايا العربية ليست من « باب النصيحة » ، وأنها « ليست ملزمة لأحد » ، بل ربما صاحبها بعض المفكرين العرب ، حتى الماركسيين « العرب المراهقون » الذين قد يجدون في فكره ورويته الماركسية شيئا من الانحراف . أما غير الماركسيين ، فلسوف يعتبرون كتاباته - خصوصا عن الرسول (ص) - غير مقبولة ، نظرا لرفضه الخرافات والأساطير التي حيكت حول شخصه .

ومع ذلك ، ظل « رودنسون » مخلصا لفكره ومواقفه ، إذ ظل حتى أواخر أيامه مدافعا عن الحقوق العربية المهددة ومعارضاً منددا بالسياسات الأمريكية والإسرائيلية . من هذه المواقف أنه بعد انتكاسة ١٩٦٧ كون لجنة مع مجموعة من المفكرين الفرنسيين للدفاع عن الحق العربي ، أصدرت نشرة بتبصير الشعب الفرنسي بهذه الحقوق ، لكنها توقفت تحت تأثير النفوذ الصهيوني . كما نشر عدة مقالات في صحيفة « العصور الحديثة » بهدف فضح الصهيونية ودعائها العنصرية والدينية المتحجرة ، دون أن يعبأ بالتهديدات باغتياله . كما كتب مقالات أخرى بعنوان « إسرائيل وأقع استعماري » فضح فيه المشروعين الاستعماريين الغربي والإسرائيلي ، معتبرا إسرائيل « كلب حراسة » لأمريكا . بل أصدر كتابا بعنوان « شعب يهودي ومشكلة يهودية » عام ١٩٨١ فند فيه دعاوى الصهيونية واعتبرها نوعا من « الهذيان الأيديولوجي » وكان هذا الكتاب تنمة لكتاب سابق عنوانه « إسرائيل والرفض العربي » ، دافع فيه بالقرائن التاريخية على الحقوق العربية المهددة ، والتي سكت عنها « شيوخ العرب » الموالين للغرب . وقبل ذلك شارك في ندوة بالقاهرة عام ١٩٦٤ عقدها « إتحاد طلبة فلسطين » . كما اشترك مع « جاك بيرك » في تشكيل لجنة تدافع عن الحقوق الفلسطينية ، رافضا أن تكون تحت رعاية أي نظام عربي حاكم .

كانت مواقفه تلك - وغيرها كثير - تنطلق من كونه عالم اجتماع سياسياً دارساً لجنود السياسة ومحيطاً بدهاليز لعبتها ، وكمفكر إنساني « ماركسي » يرى في الماركسية خلاصا للبشرية من « جبروت » الإمبريالية .

أما عن صلاته بالإنتماليجتسيا العربية ، فقد توخى منها ترهيد تلك النخبة وحثها على ربط ماضيها العريق بالحاضر ، بهدف الخروج من دائرة التخلف والتبعية إلى آفاق التقدم والاستقلال بمعناه الشامل ، مبنيا في ذلك من التفاؤل « الذي عز على المفكرين العرب



المعاصرين .

وفى هذا الصدد لم يتقاسم عن نقد تلك النخبة بتياراتها الأصولية المنغلقة واليسارية المرافقة.

واستهدف من إنجازاته فى حقل التراث العربى الإسلامى تحقيق تصحيح الرؤية الغربية إزاء الإسلام والمسلمين ، كونها مؤسسة على معارف فجّة شوهاء ، ونزعات عنصرية لا إنسانية ، ومصالح وأطماع أنية ومستقبلية.

مع ذلك كله يأتى العقل العربى المعاصر إلا أن « يسكت » عما قدمه « مكسيم رودنسون » من جهود ، فى ذات الوقت الذى تقام فيه الاحتفالات الصاخبة لكتاب رأسماليين من الدرجة الثالثة تحت دعاوى العصرية والحداثة.

وإذا كان لذلك من دلالة - فيما نرى - أن " الشخصانية " العربية مبتلاة بأمراض « سيكولوجية » معقدة ، أضعفها « الشينوفرنيا » وأخطرها « السادية » إزاء الأصدقاء و« المازوخية » إزاء الأعداء .

تحية إلى « مكسيم رودنسون » حين حياته ، ويوم وفاته ، ويوم يبعث حيا .
وعزائى فيه أننى كنت ضمن قلة معدودة من المؤرخين والمفكرين العرب الذين أجلوه وعرفوا قدره ، وهو ما سجلته فى مواضع عدة فى طوايا مشروعاتنا « سوسيولوجيا الفكر الإسلامى » ، بعد أن أفدت من منهجه ومن رؤيته فى إنجاز هذا المشروع الذى أهديه إلى روحه يوم رحيله.

ماكسيم رودينسن وآليات التلقى والتفاعل

د. كاميليا صبحي

توفي يوم الأحد ٢٣ مايو عام ٢٠٠٤ عن عمر يناهز الـ ٨٩ عاماً ماكسيم رودينسن MAXIM RODINSON المستشرق الفرنسي الميلاذ والنشأة الروسى / البولندى الأصل ، اليهودى بحكم الانتساب العائلى ، الماركسى بحكم الانتساب الفكرى والأنيبولوجى ، والذى طالما كتب عن العرب والإسلام من واقع تخصصه العلمى وإجادته للغة العربية والعبرية والتركية والأثيوبية القديمة إلى جانب الفرنسية ، لغة كتابته .

ولد رودينسن فى باريس فى ٢٦ يناير عام ١٩١٥ ، وحصل على الدكتوراه فى الآداب ، ثم على شهادة من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية والمدرسة العلمية العليا . وتولى العديد من المناصب العلمية فى كل من سوريا ولبنان فى المعاهد التابعة للحكومة الفرنسية هناك . كذلك عين مديراً للدراسات فى المدرسة العلمية للدراسات العليا بقسم العلوم التاريخية واللغوية ، ثم محاضراً فى قسم العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وقد نال العديد من الأوسمة والجوائز من الجهات العلمية الفرنسية والأوربية ، ولرودينسن مؤلفات عديدة ،

من بينها : كتاب " محمد " الصادر عام ١٩٦١ الذي أثبت بشأنه ضجة في مصر قبل عدة سنوات ، وكتاب " الإسلام والرأسمالية " ، و" جاذبية الإسلام " ، و" إسرائيل والرفض العربي " ، إضافة إلى العديد من الدراسات الخاصة بالتاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي .

وعلى الرغم من أن رودينسن ولد لأب روسي يهودي وأم بولندية هاجرا إلى باريس وتوفيا في معسكر أوشوويتز النازي إلا أنه اتخذ موقفاً نقدياً من الصهيونية ولم يتردد في وصفها في كتابه " إسرائيل والرفض العربي " بأنها " فيروس في الجسد اليهودي " أما عن إسرائيل ، فقد كتب في مقال له غذاة حرب ٦٧ تحت عنوان " إسرائيل واقع استعماري ؟ " في مجلة " لى طون موديرن " LES TEMPS MODERNES مؤكداً واقع إسرائيل الاستعماري الظالم بالنسبة للفلسطينيين ، ولكنه مع هذا رأى أن إلقاء إسرائيل في البحر لن يكون إلا مظلمة جديدة تضاف لما هو قائم . فإسرائيل موجودة بالفعل ، ولابد الآن من دولة فلسطينية .

انضم رودينسن إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٧ لأسباب وصفها بأنها أخلاقية . ولكنه استبعد من الحزب عام ١٩٥٨ على أن يكون له الحق في العودة إليه بناء على طلبه ، ولكنه لم يفعل . وكتب بعدها بعدة أعوام يقول : " حينما ندخل صراعاً خاصاً فإننا نترك أنفسنا نققاد لمنطق هذا الصراع ، وحينما ننضم إلى تنظيم فإننا ننزلق إلى منطق . وكلما زادت الحرب والمعارضة التي يتعرض لها هذا التنظيم زاد انزلاقنا " ، ولكن انفصال ماكسيم رودينسن عن الحزب الشيوعي لم يحل دون وفائه حتى النهاية لفكر ماركس حتى أن قراءاته لحياة محمد والإسلام وصفت بأنها قراءة ماركسية .

رأى البعض أن رودينسن يتحدث عن المسلمين أكثر مما يتحدث عن الإسلام ، وربما أراد رودينسن بهذا - وهو المؤرخ والمحلل الاجتماعي - لفت الأنظار إلى أن الغرب يواجه مجتمعات وليس نصاً وتفسيراته . أي أن سؤاله عن الإسلام لاينطلق من تأويل للنص بقدر ما يركز على تلقي هذا النص لذلك عد رودينسن تصور صامويل هانتجتون لصدام الحضارات تصوراً مختلاً للغاية يحصر واقعاً متسعاً ومتعدد الجوانب في نقطة واحدة ، حتى أنه لا يحيط بشئ في النهاية من فرط محدودية رؤيته .

أما عن رؤيته هو الخاصة بشأن الصراع بين الشرق والغرب فقد عبر عنها عام ١٩٨٢ في حديث أدلى به لجريدة لوموند الفرنسية قائلاً : " منذ ١٤ قرن والغرب منبهر بالإسلام بمعنى ما ، لأن هذا الشرق ظل طويلاً غريماً ومنافساً بل وعدوه وفي أغلب الأحيان وظل الشرق منافساً لأوروبا المسيحية لأنه انتزع منها سيطرتها على مناطق كثيرة من العالم " .

ثم كان له حديث مطول مع مجلة لويوان le point الفرنسية فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر أكد فيه أن الصراع بين الشرق والغرب هو صراع دينى فى المقام الأول ، وأنه قديم قدم ظهور الإسلام الذى اعتبرته المسيحية فى ذلك الحين ادعاء أى أن الصراع ليس صراعاً قومياً أو حضارياً كما يراه البعض . والغرب بالنسبة للمسلمين عبارة عن أناس يقولون أفظع الأشياء عن النبى محمد وعن الإسلام ، لذا يجب التصدى له بالقول أحياناً وبالسلاح أحياناً أخرى ، وهذا يفسر ظاهرة الإرهاب . كما أن لهذا الكره بعده الوطنى ، فمحاولة الغرب فرض قيمه على المسلمين تثير مخاوفهم ، وللتفاوت الكبير فى مستوى التقدم ودرجة الرضاء دور فى إزكاء مشاعر الكراهية والخوف التى بدأت بين الشرق والغرب . كما يرى رودينسن - منذ القرن السابع الميلادى ، وإن لم ينتخب المسلمون إلى هذا . لقد كان المسلمون سباقين إلى غزو أوروبا وفتحها ، وكانت لهم أطماع سيطرة وهيمنة ، وكانت معظم الدول الإسلامية مسيحية فى ذلك الحين ، وظل المسلمون لفترة طويلة الأقوى والأغنى والأكثر تحضراً ، ثم انقلبت الموازين بمرور الأيام ، واستطاع الغرب أن يفرض سيطرته بالقوة من ناحية وبالفكر والتجارة من ناحية أخرى ، بدأت هذه المرحلة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتحققت للغرب الغلبة بالفعل فى القرن التاسع عشر مع التقدم التكنولوجى الكاسح وتتدافع القذائف والمدافع الأوربية بشكل متسارع .

وعن تأثير الإسلام البالغ على المسلمين يقول رودينسن إن الإسلام قائم على مبادئ بسيطة ومقنعة : إله واحد ينظم كل شئ فى العالم ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تكفى لكى تصبح مسلماً ، والعادة فى الإسلام هى الختان ، وإن كان ليس شرطاً إلزامياً ولعل سبب عدم اعتناق جنود نابليون الإسلام هو جزع العلماء المسلمين من فكرة هذا الدخول الحاشد فى الدين الإسلامى مما جعلهم يفرضون شرطين : الختان وتحريم الخمر ، وكان هذا الشرط الأخير غير مقبول ، لهذا فإن الفرنسيين - طبقاً لرودينسن - مسيحيون وليسوا مسلمين . كذلك يرى رودينسن أن عدم قدرة المسلمين على إعطاء صورة جيدة لأنفسهم فى الغرب ربما يرجع إلى أنهم لم يتمكنوا من فهم الآليات التى تحرك الرأى العام الأوروبى ، ولهذا فهم دائماً يزلون فى حديثهم . والمشكلة فى تقديره هى مشكلة جهل وعدم فهم : عدم فهم المسلمين للمسيحيين والعكس بالعكس .

فهل فهم رودينسن للإسلام والمسلمين صدم مشاعرهم الدينية ؟ لقد رأت أقلام غربية فى كتابه عن السيرة الذاتية لمحمد " ص مرجعاً نقدياً أساسياً يضع النبى فى سياقه الاجتماعى



والسياسى والثقافى مما يتيح قراءة اجتماعية لحياته " نون أن يصدم هذا عقيدة المسلمين ". ومع هذا ، فإن كتابه الموجه للقارئ الغربى فى المقام الأول والذي يخاطب عقليته التى لن تضفى القدسية ذاتها على شخصية الرسول « ص » أثار ردود فعل غاضبة وصادمة لـ " عقيدة المسلمين " ، حتى أن وضعه ضمن مقررات الجامعة الأمريكية قبل سنوات أحدث ضجة مدوية لعل هذه المقتطفات المترجمة من الكتاب تفسر دوافعها .
لم تكن النوايا السيئة بالضرورة وراء كل هذا ، ولكنها آليات التلقى والتفاعل سابقة التجهيز ، والتى ربما أن الألوان لها أن تتغير .. من الجانبين .

فقرات من كتاب

محمد

لما حُصِيَ رُوحيته

ترجمة: كاميليا صبحي

لا أحد يعلم على وجه اليقين متى ولد محمد الذي أصبح فيما بعد نبي الله. ساد اعتقاد أنه ولد في عهد كسرى أنوشروان، أي قبل عام ٥٧٩ م ، وهذا أقرب إلى الواقع ، ويقال عنه عام الفيل ، ذلك العام الذي ألحقت فيه طيور السماء الهزيمة بجيش أبرها أمام مكة ، وهذا قطعا غير صحيح. أما التاريخ النهائي المبني على حسابات غير مؤكدة على الإطلاق فيذهب إلى أنه ولد ما بين عامي ٥٦٧ و ٥٧٣ . ويرجح غالبا أنه ولد عام ٥٧١ .

()^١ يقال عن (عبد الله) والد محمد أنه كان شديد الحسن. ورغبة من أبيه في التحالف مع بنى زُهرة ، فقد أراد مصاهرتهم. فطلب الصبية أمينة بنت وهب لابنه ، وتخير لنفسه ابنة عمها هالة بنت وهب المنتمة لنفس العشيرة.

وكما هي عادة العرب ، ظلت أمينة على ما يبدو بين أهل عشيرتها، يأتيها عبد الله بين الحين والآخر. ورزقا بمحمد ، أول وآخر طفل لهما. وتجدر الإشارة إلى أحد الروايات الشائعة

^١ - هذه الإشارة تنبئ تركنا جزء من النص وننتقل إلى فترة لاحقة (لترجمة)

عن ميلاد محمد، وإن افترقت أية قيمة تاريخية بالطبع، وهي حكاية تتناقض بشكل قاطع مع حرص السحبية على إظهار ميلاد المسيح - بقدر الإمكان - خارج إطار أية علاقة جنسية.

”أتى عبد الله امرأة أخرى له - وقد فرغ لتوه من العمل في الفخار على أرض يملكها - ومازال يحمل على يديه أنار الطين. وبدأ يراودها فودته بنسب ما علق به. فخرج من عندها وأغتسل وتوجه إلى أمينة. وعاود المرور بالقرب من تلك المرأة فنادته، ولكنه ردها ولم يلبي ومضى إلى أمينة ودخل عليها وأتاها. يومها، حملت بمحمد عليه الصلاة والسلام. وأثناء عودته، سأل المرأة الأخرى: أما زلت ترغبين؟ فردت: كلا! حملت في المرة الأولى نورا بين عينيك وناديتك فأبيت، ثم أتيت أمينة فحملت منك هذا الضياء.”

توفي عبد الله وامراته حامل - أو بعد وضعها طفلها بقليل - في رحلة عودته من غرة، بينما كان يزور المدينة لقضاء حاجة. ولم يخلف لزوجته سوى أشياء قليلة: أمة وخمسة من الإبل وبعض الأغنام. قامت أمينة على رعاية طفلها، بيد أن الموت عاجلها ولم يتخطى وليدها السادسة من عمره بعد.

معلوماتنا عن طفولة محمد غير مؤكدة. ومع الوقت شغلت الأساطير هذا الفراغ. وكلما تبعاد الزمان، كلما زادت الروايات جمالا ومثالية. بل إن أقدم المعلومات - على اقتضاها غير موثوق بها. فحينما أصبح الإسلام دين دولة قوية، تهدت الحاجة لوجود قواعد منظمة للحياة الاجتماعية. وبطبيعة الحال، تباينت الآراء والمصالح. كما ارتبطت بعض الأحزاب السياسية بآل بيت النبي أو بصحابه. فضلا عن رغبة البعض الاستزادة من حياة محمد بدافع الفضول أو التقوى، أو من باب الاهتمام التاريخي. في ذلك الحين، كانت الزوارة مهنة. وكان الرواة يوردون أحاديث تشبع هذا الفضول أو هذه التقوى أو هذه الحاجة التنظيمية، لا سيما وإن فعال النبي عدت نموذجا يحتذى به. فإن تصرف في شأن من الشؤون على نحو ما وجب على أنصاره الاقتداء بما فعل، سواء تعلق الأمر بمسائل على درجة كبيرة من الأهمية مثل القواعد المنظمة للميراث (وقد فرضها الله ذاته في القرآن)، أو كانت مرتبطة بأبسط السلوكيات اليومية مثل آداب الطعام.

كان على الرواة شأنهم فى هذا شأن مؤرخينا - ذكر مصادرهم التى كانت فى مجملها شفاهية. فكان يروى عن فلان نقلا عن آخر وهكذا حتى أحد معاصرى الرسول ممن شاهده يتصرف فى شأن ما على هذا النحو، أو سمعوه يتفوه بهذا الحديث. وبطبيعة الحال ، سهل على البعض اختلاق حديث يدعم وجهة نظره أو وجهة نظر حزبه. ولم يخفى هذا على كبار كتاب التاريخ والفهاء العرب، فحاولوا حذف الأحاديث غير الصحيحة خاصة إذا استحال أن يتناقلها هؤلاء الرواة. ولكنهم لم يصلوا إلى حلول قاطعة فى هذا الشأن . ولهذا نجد فى بعض الأحيان أحاديث متناقضة بشأن موضوع من الموضوعات. وعلى القارئ أن يقرر أيهم أصدق "والله أعلم" كما يقولون فى كثير من الأحيان .

() وددنا لو أن لدينا معلومات أوفر عن نشأة محمد وتكوينه ، نظرا للأهمية التاريخية الكبرى لثل هذه المعلومات. وطبقا للمقيدة الإسلامية ، انقطع محمد عن أية طقوس وثنية بما ساد فى بلده . غير أن هذا الأمر يبدو مستبعدا.

فثمة مؤشرات قاطعة تدل على انه مارس فى حياته السابقة على الإسلام ديانة آباءه. ويقال أيضا انه ضحى بأحد الأغنام " للعرّة " شأنه فى هذا شأن الجميع. وهناك رواية أخرى غير شائعة تقول انه قدم إلى أحد الموحدين لحم القرابين الممنوح للآلهة ولكنه أبى وعاتبه.

() ويرجح أن محمد تعلم القراءة والكتابة على الرغم من تأويل خاطئ لكلمة وردت فى القرآن. ولكننا على أية حال نهمل مدى عمق ثقافته فيما عدا بعض المؤشرات النادرة غير الموثوق فى صحتها التى عرفناها خلال حياته .

() وفيما يبدو، فقد طالعت حياة المزبوية بمحمد أكثر مما كان شائعا فى ذلك الحين. ولابد أن فتره كان وراء هذا .

() وما لبثت الفرصة أن واثته بعد حين. ودون الخوض فى المبالغات التى جعلت منه نموذجا للكمال الجسدى والعقلى والأخلاقى ، فان خصاله التى تبدت فيما بعد كانت كافية لتدلنا على مدى إيجابية الانطباع الذى كان يتركه حوله. فقد لفت إليه الأنظار بذكائه وهذوه وصرانته وتوازن سلوكياته، وأسلوبه فى التعامل مع الآخرين. وهذا - لا شك - ما جعل امرأة مثل خديجة

بنت خويلد تدعوه للقيام على شؤونها . لم تكن شابة صغيرة بل أرملة سبق لها الزواج مرتين ولها العديد من الأبناء. () والأمر المؤكد على أية حال، أن همته ونشاطه في قضاء حوائجها ولد لديها الرغبة في الزواج منه.

() حينما لقبوه بالأمين ، كان محمد في الخامسة والثلاثين من العمر ، يحظى باحترام الجميع وتقديرهم . أصبح له دور في وطنه الصغير ، واستقرت به الأحوال فنعم بالثراء - أو لنقل بيسر العيش - تحوطه مشاعر الود . وكان بمقتوره المضي في هذه الحياة الهادئة السعيدة خاصة أن كل ما حوله يحثه على هذا . ولكنه لم يكن ليرضى بهذه الحياة اليومية الرتيبة . كان ثمة قلق يستبد به ، كان يبحث عن شيء آخر مختلف . نحن نهمل بالطبع تفاصيل خلجات نفسه ، ولن نزعج اللجوء لنظريات التحليل النفسي ، ولكن استنادا إلى نزعات النفس البشرية التي لفت فرويد أنظارنا إليها ، نستطيع أن نصل إلى بعض الاستنتاجات ونقيم - تأسيسا عليها - بعض الافتراضات النفسية.

وبشكل عام ، كان محمد يترك لدى الناس انطباع بأنه رجل حكيم ، متوازن ، راجع العقل ، يفكر مليا قبل اتخاذ قراراته ، ماهرا في إدارة شؤونه العامة والخاصة ، يجيد التمهل وقت اللزوم ، والتراجع إذا استدعى الأمر ، واتخاذ التدابير الكفيلة بإنجاح مشاريعه . كان يتحلى بشجاعة بدنية ، مكتسبة أكثر منها طبيعية ، أهله أن يكون محاربا جيدا . ديبلوماسي من الدرجة الأولى ، يحكم على الأمور بمنطقية وصفاء ذهن . لكن خلف هذه الواجهة كانت هناك شخصية عصبية مشوبة العاطفة ، قلقة مضطربة ، تتوق بشدة إلى المستحيل وتتطلع إليه بصبر نافذ . حتى أن الأمر كان يصل به في بعض الأحيان إلى حد الاضطراب العصبي المرضي.

كان لدى محمد كل ما يؤهله للسعادة ، ومع هذا لم يكن سعيدا . فالسعادة ، هذه الحدود هذا القبول الهادئ والرضوخ للأمر الواقع ، لم يكن مما يرضى هؤلاء الذين يتطلعون دائما لأبعد مما في متناول أيديهم ومما هم عليه ، ولن يتمتعون بطبيعة فضولية مثلهذه ، تنمى فيهم الرغبة في الحصول على كل ما هو مرغوب . ولابد أن حياة الفقر والإحباط التي عاشها اليتيم الشاب قد نمت هذه الرغبة الجامحة في داخله . ولا شيء أقل من المعجزات كانت كفيلة بجلب السكينة إلى نفسه.

يقينا ، لم يكن محمد راضيا. فهل كان وراء هذه الحالة النفسية نوافع ملموسة بدونها لم تكن
لنفهم توجهاته اللاحقة ؟ وما هي ؟

ليس من العسير تلمس هذه الدوافع وان ظلت الرؤية غير واضحة تماما. فأحد هذه الأسباب
التي أثرت لا شك عليه، وربما أثارت دهشتنا، تتمثل في أنه حُرِم خلفه الذكور. كان هذا
الأمر مبعث عار للعرب كما للشعوب السامية بوجه عام ، حتى أنهم لقبوا من لم يرزق بالذكور
بالأبتر (من البتر).

() سبب آخر، لم يلتفت إليه أحد تقريبا ، هو طموحه . وهو طموح مشروع ناشئ عن وعي
شديد بقدره . لا بد أن محمد اعتبر نفسه شخصية استثنائية وفطن إلى هذا مبكرا ، خاصة أن أحد
من حوله لم يكن يهتم بالمسائل الدينية والأخلاقية والفكرية التي كانت تؤرقه. ()

هذا الضيق الذي اعترى رجل يسخر منه قومه بسبب عدم إنجاب الذكور، وهذا الإحباط
الناشئ عن رغبة حسية قوية يرهه عنها ضميره ووعيه الأخلاقي الذاتي ، هذا الغضب الدفين
لرجل يعرف قدر نفسه ويستهيئ به ساسة قومه، لا بد أنه ولد في نفسه رغبة عارمة في الانتقام
على كافة الأصعدة ، وان ظل خاضعا لمعايير مجتمعه. ومع هذا ، شيء ما في محمد جعله يتخطى
كل الحدود .

() لا نعرف على وجه اليقين متى بدأ محمد يختلى بنفسه في غار حراء () أو عما
كان يبحث ، وماذا كان يفعل على وجه التحديد؟ لا يوجد أي نص موثوق به يعلمنا بالأمر. يقينا
انه كان يبحث عن حقيقة الذات الإلهية وقد تحير من كل ما يقال عن الله وتجلياته. () لا بد
انه راح يتأمل ويدعو الله لينير له بصيرته. حتى كان هذا اليوم الذي حدث فيه شيء ما كما جاء
في رواية هي أكثر ما ورد إلينا مصداقية، إذ تعتمد على ما أسر به محمد ذاته إلى محبوبته
عائشة . تقول عائشة : " كانت بداية الوحي لرسول الله رؤية حقيقية لاحت كما يلمح الفجر أو
كما الفلق . "

() هنا ، لا يسعنا إلا أن نتساءل بشأن أمر لا سبيل إلى التغافل عنه ما دمنا نتحدث عن محمد ، وقد أوردت من قبل بعض عناصر الإجابة عليه ، ولكن لابد من تناوله الآن على نحو أكثر عمقا . إذ أن الأمر يتعلق بإخلاصه .

لم نعد في عصر يجعلنا نشك في أمر رسالة دينية . جتى نرى فيمن يبلغونها مجرد أفاقين . فقد رأى فلاسفة العقلانية في القرن الثامن عشر ، وعلماء الدين المسيحي والدافعون عنه ، في محمد نموذجا للدجال . وطبقا لمعلومات مشكوك في صحتها حول حياته روى البعض انه كان يلجأ لبعض حيل السحر . ليبهر معاصريه . على أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يصنفون هذه الصفة على جميع مؤسسي الديانات ، وكان البعض منهم - مثل فولتير على سبيل المثال - يرى ان محمد لجأ الى أساليب أخف وطأة من غيره لتحقيق هدفه المشروع ودفع شعبه الى وضع أقل مهانة على ساحة التاريخ . ففى هذا العهد ، ونظرا لفظاظة العقليّة العربية التي كان عليه التعامل معها ، كان لابد من اللجوء لأعمال الدجل للتأثير على هؤلاء القوم . ومع نهاية القرن التاسع عشر ، وضع هوبيرت جريم ، وهو أحد المستشرقين الألمان ، نظرية من هذا النوع نسب فيها لمحمد أهداف محمودة . فطبقا لجريم ، اقتنع محمد بحتمية إيجاد حلول للظروف الاجتماعية التي عانى منها وطنه ، وبأن السبيل الوحيد للخلاص - كما قيل فيما بعد - يكمن في قيام الأغنياء ببذل الأموال . فوضع خطة لمساعدة الفقراء بفرض ضرائب كبيرة على الدخول كانت ستؤثر في المقام الأول على الأغنياء . وأدرك انه ما من سبيل يجعلهم يتقبلون هذا الحل ، ولم يكن يتصور حدوث صراع طبقي على طريقة القرنين التاسع عشر والعشرين . فأراد أن يبيث الرعب في قلوب الأغنياء ليحثهم على قبول برنامجه الذى وصفه جريم بأنه " اشتراكي " فى فورة حماسة للتقدم المشهود للحزب الاشتراكي الألماني فى ذلك الحين . لذا كان لابد لمحمد أن يتخيل هذه " الأسطورة " التي اختزلها إلى أدنى حد ضرورى ، لتنتهى بيوم حساب لن يفلت من عقابه الأغنياء إن لم يأمّنوا غضبة القاضى السماوى ، بدفع ضريبة " التطهر " أو الزكاة التي شرعها محمد .

ومع تقدم الطب والتحليل النفسى ، ثبت صدق هذه التفسيرات المبسطة عن الدجل سواء كان لها ما يبررها أم لا . () وعلى أى حال ، فان الجميع يفهم الآن - بل يتقبل - فكرة وجود أشخاص يعتقدون صادقين تلقّيتهم رسائل سمعية وبصرية وفكرية من العالم الآخر ، وان صدقهم هذا ليس دليلا على أن هذه الرسائل تأتيهم حقيقة من حيث يعتقدون . فقد ساعدتنا فكرة "



اللاوعي " على فهم هذه الوقائع. () وليس علينا إلا الرجوع إلى مؤلفات علم النفس لنشهد مئات من الحالات لأشخاص مخلصين ، حسنت نيتهم ، يرون مشاهد ويسمعون أصوات وهم في حالة هي أقرب إلى الهذيان. وهم يزعمون مخلصين انهم لم يروا أو يسمعوا قط ما رأوه أو سمعوه. غير أنه بدراسة حالاتهم بشكل موضوعي تبين قيام العقل الباطن بالربط بين مشاهد وأصوات رأوها واستمعوا إليها بالفعل ولكنها انزوت مع الوقت وسقطت في حيز النسيان. ()

ولكننا حينما نتأمل أول رسالات أبلغها محمد، وحينما نطلع على أزمات الشك والياس التي سبقتها أو واكبتها فلا يسعنا إلا أن نتشكك في النظريات التي ترى فيها مجرد مظهر لخطة حسبت بهدوء ، ونفذت ببراعة ، وجاءت من وحى الطموح أو حب الإنسانية ، مع أن هذه الروايات تبدو أقرب إلى الصحة . صحيح أنها دأبت على إضفاء صورة خارقة على محمد ، ولكن لا يمكن أن تكون ابتدعت كل هذه الملامح التي أصبغته بمبغة شديدة الإنسانية.

ثورة « ماو » الثقافية

(حوار حول الصين)

ألبرت مورافيا

ترجمة : وحيد النقاش

كلمة من المترجم

لاحظت في الفترة الأخيرة أن دور النشر الفرنسية تولى الصين اهتماماً غير عادي حيث أخرجت المطابع عدداً لا يحصى من الكتب عنها ما بين مؤلف ومترجم ، حتى ليخيل إلى أن أي باحث قد يجد كثيراً من المشقة والعناء في مجرد قراءتها بروح نقدية . ولست أدعي أنني قد استطعت حتى إحصاء تلك الكتب وقراءتها لكي أختار من بينها واحداً منها يحمل شيئاً جديداً ومفيداً للقارئ العربي فأنقله إليه . وأعترف بأن في اختياري لكتاب مورافيا هذا شيئاً من التحيز ، فمورافيا معروف على نطاق عالمي كروائي وكاتب قصة ، ولعل هذا الجانب هو الذي أغرائني حتى من قبل قراءة النص الفرنسي لكتابه، ينقله إلى العربية ، لإحساسى بأن موهبته الروائية لا بد أن تجعل من رحلته إلى الصين أثراً أدبيا من الطراز الأول. وما أن القضايا التي تطرحها الصين هي من أخطر القضايا السياسية التي يعرفها العالم المعاصر ، وربما من أكثرها تعقيداً كذلك ، فرمى كان من المستحسن أن يراها القارئ أولاً

من خلال حساسية فنان ذى وعى سياسى عميق ، قبل أن يدفعه الفضول إلى الدخول إلى متاهاتها وتعقيداتها من خلال المراجع السياسية الأكاديمية ، والتي قد لاتسعه الوسائل للإطلاع عليها .
وتلك فى اعتقادى إحدى الوظائف التى خلقتها ضرورات الحياة الحديثة للعمل الروائى ، أو بالأصح للكاتب الروائى . فكما أن أحد الأشكال المتعارف عليها اليوم للسينما هو الفيلم التسجيلى أو الوثائقى ، فإن ثمة ضرورة مماثلة تقضى بأن يقرأ القارئ رواية تسجيلية أيضا . ولكن شيئا من الحذر يدعوننا إلى أن نفرق بين العمل الروائى التسجيلى وبين الريبورتاج أو الاستطلاع الصحفى . ربما كان لكل منهما نفس الهدف ، وهو إعطاء القارئ أكبر قسط ممكن من المعلومات حول موضوع معين يؤهله للإحاطة به ، ولكن سيظل للعمل الروائى دائما سحر الفن وممتعته ، وبنياته كذلك ، وبالتالى تفوقه وقدرته على الاستمرار والبقاء .

وإذا صح القول بأنه مامن عمل أدبى يمكن أن يخلو من « وجهة نظر » ، وأن غياب وجهة النظر هو فى حد ذاته أحيانا وجهة نظر ، فإن كتاب ألبرتو مورافيا الذى تقدمه الآن للقارئ العربى يحمل وجهة نظر واضحة بطبيعة الحال ، تقول بأنه لا ينبغي أن نحكم على الصين الراهنة بقاييس أو معايير نستمدّها من الغرب أو من الفكر البورجوازي ، أى من خارجها . لأن أى تناقض قد نراه نحن بعيوننا وتصطمم به عاداتنا فى الصين إنما هو انسجام وتكامل لو عشناه من داخل الصين نفسها . ولن نستطيع قط أن نفهم الصين حتى فى ثورتها الاشتراكية المعاصرة إلا إذا عرفناها ككل منذ كونفشيوس ولاوتسى وحتى ماو تسي تونج . ولذلك فقد أخذ مورافيا على عاتقه أن ينير لنا لغز الصين من الداخل ، داعيا إيانا إلى أن نتنقل معه خطوة بخطوة فى رحلته وطوافه عبر الأماكن التى قدر له أن يزورها فى الصين وفى البلاد المتاخمة لها ، ولعله قد استطاع بذلك أن ينقل إلينا صورة « واقعية » لأوضاعها الراهنة ، أى صورة وثائقية قام هو نفسه فيها بدور الراوى والمعلق . وقد رأيت كل فصل من فصول الكتاب وكأنه مشهد مركز غنى حشد فيه مورافيا كل موهبته الأدبية على الملاحظة والتسجيل يدور حول نقطة بعينها أو سؤال بعينه من الأسئلة المطروحة حول الصين .

ونحن فى النهاية قد نتفق معه فى كل ملاحظاته وقد لاتقره إلا على بعضها فقط . ولكننا على أى حال سنذكر أنه ألقى الكثير من الضوء على الكثير من قضايا الصين وقضايا الثورة الثقافية والأمور التى تثيرها علاقة ذلك البلد الشاسع بجيرانه وبالعالم . فلنقرأ كتابه إذن على أنه عمل تسجيلى يعرض موضوعا شائكا ، ولنستنشق فيه عبير الفن الروائى .

وحيد النقاش

مقدمة :

حوار حول الصين

ب : إذن فأنت عائد من الصين ؟

أ : نعم أنا عائد من الصين.

ب : ما أعظم شئ أثر فيك هناك ؟

أ : الفقر ؟

ب : الفقر ؟

أ : نعم

ب : وهل الصينيون فقراء ؟

أ : بحسب الفكرة التى يكونها الناس فى بلدان الغرب عن الحياة المريحة أقول لك : نعم ، إن

الصينيين فقراء .

ب : وما الانطباع الذى خلفه فى نفسك فقرهم ؟

أ : شعرت بالعزاء .

ب : يا للشيطان ! .. إن الفقر فيما أعلم معناه التدهور والحرمان . وأنت تقول أنه قد سبب

لك شعورا بالراحة والعزاء ، فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟

أ : أنا على يقين من أننى أحسست بذلك ، فلا يمكن للمرء أن ينخدع فى مثل تلك المشاعر.

أحسست به طوال الوقت الذى مكثته فى الصين . ولكنك تسألنى لماذا ؟ . إننى لم أفكر بعد فى

الأمر ، ولسوف أعمل فيه ذهنى الآن وأحاول أن أرد عليك .

ب : فى الغرب لا يمكن للفقر أن يمنح أى إحساس بالعزاء بل ، إنه على العكس يبعث فى

النفس شعورا بالقهر ويخلق الرغبة فى التمرد . خذ مثلاً زنوج أمريكا الذين يحرقون أحياءهم

المنبوذة .

أ : فى الولايات المتحدة يوجد الفقراء . ويوجد الأغنياء . والفقراء فقراء لأن هناك أغنياء .

والأغنياء أغنياء لأن هناك فقراء . أما الصين فليس فيها إلا فقراء فقط .

ب : هذا صحيح .. كل الناس فقراء فى الصين . كان ينبغي أن أفكر فى هذا .

أ : الجميع فقراء ، نعم . ولكن تسميتهم بالفقراء غير لائقة . يجب أن نبحث لهم عن اسم

آخر .

ب : مثلاً ؟

أ : الحق أننى لا أعرف . فليس هناك كلمة يمكن أن نشير بها إلى الفقير فى حد ذاته دون مقارنته بالغنى.

ب : ولكن ماذا يمكن أن يكون الفقر الصينى إذن ؟

أ : أستطيع أن أقول أنه عدم وجود الغنى . أى أنه بمعنى آخر ، فى حقيقة الأمر ، الحالة الطبيعية للإنسان.

ب : وضع ماتعنيه .

أ : المسألة فى منتهى البساطة : يولد الإنسان مجرداً من كل شئ ، عارياً مثل الحيوانات فى الغابة . وحين يولد لا يكون قد أصبح بعد إنساناً . وحتى يصير كذلك فإنه يجتلب لنفسه كل ما من شأنه أن يجعل الإنسان إنساناً من دون كل الكائنات الأخرى . وبمعنى آخر يأتى لنفسه بما هو ضرورى للإنسان حتى يتميز عن الحيوان . وذلك لأن الإنسان أقرب مايكون إلى الحيوان يسرى عليه مايسرى على بقية الحيوانات ، حتى إننا لنتسائل غالباً : هل يستحق الأمر عناء أن يصيح الإنسان إنساناً . والفقر يتضمن ما هو ضرورى ليكون الإنسان إنساناً . هذا الضرورى موجود عند حدود الفقر ، بل إنه الفقر ذاته ، لا أكثر ولا أقل . وفيما وراء هذه الحدود يبدأ الثراء ، أى الكماليات . غير أن الفقر إنما هو الحالة الطبيعية للإنسان ، لأن الثراء - الذى هو الكماليات - لا يجعل منه إنساناً أكثر مما هو ، طالما أن الفقر قد جعله إنساناً من قبل بالفعل .

ب : كون المرء ثرياً هو إذن فى رأيك حالة غير طبيعية للإنسان ؟

أ : نعم ، غير طبيعية ، وغير إنسانية كذلك .

ب : وماذا يمكن أن تكون تلك الحالة غير الإنسانية ؟

أ : هى إعطاء معنى لكل ما هو كمالى أو زائد عن الحاجة.

ب : ما هو كمالى لامعنى له ؟

أ : بالتأكيد ، ليس له أى معنى ، وإلا لما كان كمالياً أو زائداً عن الحاجة.

ب : قل لى : متى يتعدى الإنسان حدود الضرورى ، أى حدود الإنسانى ، ويدخل فى منطقة

الكمالى ، أى غير الإنسانى ؟

أ : فلنرجع إلى الصين إذن . إن الصينيين إذا حكمنا عليهم بما نراه فى الشوارع ، إنما يحصلون على الضرورى . أما الكمالى فليس لديهم ، على الأقل فى هذه الفترة . هم فقراء كما سبق أن قلت لك . ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يشك فى كونهم متمتعين تماماً بصفات البشر ، ولا يستطيع أحد أن يفكر فى أن شيئاً ما ينقصهم وأن هذا الشئ هو الثراء ، أو ما يمكن أن يمنحهم

الثراء إياه : أى الكماليات . لقد كنت فى الصين منذ ثلاثين عاما . وكان هناك فقراء فى ذلك الوقت ، أناس كان لديهم بالكاد ما هو ضرورى للبقاء على قيد الحياة ، وكان هناك أثريا . ينعمون بالكماليات ، الأولون كانوا متدهورين على حين كان الآخرون غير إنسانيين . وما كاد الأثرياء يخفون مع كمالياتهم حتى أصبح الفقراء كائنات بشرية ، ولو لم يكن فى متناول أيديهم فى هذه اللحظة غير الضروريات التى لاغنى عنها .

ب : ومع ذلك فإن الثراء والوفرة يحملان فى داخلهما شيئا من البهجة والسعادة والحيوية . أنا لا أعارض فى أن توفر الحد الأدنى من الضرورة يكفى لخلق الإنسان ، غير أن لذلك طابعا حزيناً .

أ : ولكن الوفرة غير موجودة فى العالم الحديث : الانتاج فقط هو الموجود ، وليس فى هذا شئ من البهجة ولا الحيوية .

ب : وأى فرق تراه بين الانتاج والوفرة ؟

أ : الوفرة هبة الطبيعة ، لا تكلف تعباً ولا وقتاً ولا مالا وماخلقت لتستهلك حيث أنها تخاطب الخيال . أما الانتاج فعلى العكس يتطلب تعباً ووقتاً ومالا ، ولذلك فهو لا يمكن أن يكون الوفرة أبداً . فليس الانتاج إلا تكراراً ، إنه يعيد خلق الشئ نفسه فى مجموعات ليلبى حاجة للاستهلاك تتزايد باستمرار .

ب : إذا شئت . ولكنك ستوافقنى على أننى إذا قلت للصينيين بأن فقرهم هو الحالة الطبيعية للإنسان لأمكن أن يحتجوا على هذا الكلام . فمن المحتمل أن الصينيين فى غالبيتهم العظمى ، مع التزامهم بحدودهم ومحافظتهم على أساليب الشيوعية ، يرغبون فى أن يكونوا أقل فقراً إن لم يرغبوا فى الثراء الحقيقى .

أ : محتمل . ولكننى أتحذّر عن الصين مثلما تبدو اليوم ، ومفترضاً إنها ستبقى على ما هى عليه ، وهو افتراض عشوائى بالتأكيد . ويعنى آخر فإن الصين بالنسبة لى هى يوتوبيا قد تحققت . ربما كان ذلك عن غير عمد ، وربما كان محض مصادفة ، لا يهم . تلك اليوتوبيا قد تحققت ، وأنا أخذها كمشال يدعم أفكارى . وقد يحدث أن تصبح الصين بلداً مثل جميع البلاد الأخرى ، بما فيها البلاد الشيوعية ذات الولاء السوفيتى ، والتى يوجد فيها فقراء لأن فيها أغنياء وبالعكس . ولكن الصين فى الوقت الحاضر بلد فقير ، والأغنياء لا وجود لهم بها ، أنها بلد يعتبر الفقر فيه الحالة الطبيعية .

ب : أنا معك . الانتاج والاستهلاك خارج حدود الضرورة القصوى معناها اللانسانية . حسنا

ولكن من الذى سيحدد ماهو ضرورى للإنسان وماهو غير ضرورى؟

أ : الإنسان نفسه ، أو قل الحس السليم إذا شئت .

ب : ومع ذلك فقد جاءت فترات من التاريخ كان على المرء خلالها لى يكون إنساناً أن «يملك» قبل كل شئ وأن يستعرض الثراء . فترة النهضة على سبيل المثال.

أ : فترات التاريخ المختلفة لا تهتمنى فى شئ ، وحتى التاريخ ذاته بشكل عام لا يعينى . ما يهمنى هو الحاضر .

ب : إذن فلتتكلم عن الحاضر . وأكرر لك السؤال : من الذى سيحدد متى ينتهى الضرورى ، والإنسانى والطبيعى ومتى يبدأ الكمالى واللاإنسانى وغير الطبيعى؟

أ : قلت لك من قبل أن ما سيحدد ذلك إما هو الحس السليم.

ب : أنت تثق بالحس السليم ثقة كبيرة . أكثر عما ينبغي.

أ : نعم أؤمن بالحس السليم لدى الإنسان العادى . فهذا الحس السليم ، فى مواجهة الأشياء الموجودة فى العالم ، لا يقوم على الذكاء بقدر ما يعتمد على .. ماذا أقول ؟ .. على الشهية واللامبالاة ، على اللذة والضيق ، على الرغبة والاشباع إلخ . الإنسان العادى ذو الحس السليم سيتضابق ذات يوم حين يعجده الثراء من إنسانيته . وعندئذ فسوف يتحرر منه حتى ولو أقسم له فلاسفة الإنتاج والكماليات إنه على خطأ.

ب : ماذا سيفعل الحس السليم تجاه الثراء ؟ اعنى كيف سيتصرف للتحرر منه.

أ : سوف يفجر الحس السليم تجاه الثراء نوعاً من الفعل المتعكس . فحين تصل الإنسانية إلى الدرجة القصوى للإنسانية ستواجهها الرغبة فى أن تصبح فقيرة وسوف تحقق رغبتها تلك.

ب : تلقائياً ؟ بواسطة فعل منعكس ؟ ولكن التصرفات الانسانية تمر بعمليات طويلة معقدة وتقضى فى طرق شاقة تكلف غالباً.

أ : تلك ستكون عملية إنسانية . والإنسان بطئ.

ب : وماذا ستفعل الإنسانية حتى تعود فقيرة بعد أن كانت غنية ؟

أ : لن تفعل أى شئ على الإطلاق .

ب : ماذا تعنى بذلك ؟

أ : أريد أن أقول أنها ستكف عن الاستهلاك ولن تنتج إلا الضرورى .

ب : ولكن الإنسان يحب الانتاج ويحب الاستهلاك.

أ : أى إنسان ؟

ب : الانسان . هكذا بشكل عام .

أ : لا أعرف شيئا عن الإنسان بشكل عام . إنسان اليوم . نعم . هو كما نقول . يحب الإنتاج ويحب الاستهلاك . ولكن إنسان الغد يمكن أن يكون مختلفا تمام الاختلاف .

ب : فلنتحدث فيما هو واقعى ملموس . نحن نتكلم عن الثراء والفقير الحقيقيين ، كما يمكن أن نراهما اليوم فى العالم . فأين يوجد الآن أكثر أنواع الفقر انسانية ؟

أ : يوجد فى الصين فيما أرى . ولكن فى الصين الآن ، بالطبع ، فى هذه اللحظة بالذات . فليس من المؤكد أن تريد الصين أو أن تستطيع تحويل اليوتوبيا التى تمثلها وتحجسدها اليوم على نحو مؤقت ، إلى واقع دائم . كما أنه ليس من المؤكد أيضاً أن تبقى صين الغد خاضعة لنفس الظروف التى تخضع لها اليوم . فالـيوتوبيا لكى تكلف عن أن تكون مجرد يوتوبيا وتحول إلى واقع لابد لها من الدوام .

ب : قل لى الآن : أين يوجد أكثر أنواع الثراء لا إنسانية ؟

أ : على ما أعتقد فإن مكانه اليوم فى الغرب .

ب : لناخذ الأمور بالترتيب . أولاً الصين . فلنسلم بأن يوتوبيا الفقر هناك كما تطلق عليها ، أصبحت دائمة ، وتحولت بحسب أقوالك نفسها إلى واقع مستمر . فكيف سيفعل الصينيون للحصول على تلك النتيجة ؟

أ : ماعليهم إلا أن يستمروا بكل بساطة فى عمل ما يصنعونه اليوم .

ب : ولكنك تعلم تماماً أن الصينيين ينبغي عليهم أن يحولوا الصين وأن هذا البلد الزراعى يجب أن يصبح بلداً صناعياً . ففقر الصينيين إذن ليس إلا الأثر الطبيعى الناتج عن استثمار رأس المال الضرورى حتى تؤتى الثورة الصناعية ثمارها .

أ : أعرف . أن الصينيين يفعلون اليوم ما فعله الروس منذ أربعين عاماً وما فعله الغرب منذ قرن .

ب : فلنسلم الآن بأن الثورة الصناعية قد أُنجزت ، وأن فائضا من الأرباح يتراكم باستمرار ، وأن الاستثمارات تقل ضرورتها شيئا فشيئا . عندئذ ما الذى سيقعله الصينيون برؤوس الأموال التى ستظل تتراكم ؟ سيرفعون الرواتب وينشئون صناعة خفيفة للاستهلاك تسمح بانفاق أموال الرواتب . وهكذا تصبح الصين بلداً مثل جميع البلاد الأخرى ، بلداً غنياً .

أ : هذا صحيح . ولكنك تنسى أننا تكلمنا عن اليوتوبيا . اليوتوبيا موجودة فى الصين ، ويوجد أيضا ما هو أهم ، أعنى محاولة جعل اليوتوبيا تصبح هى التاريخ . ولليوتوبيا بطبيعة

الحال تتوصل إلى حلول طوبوية تابعة منها .

ب : يسيطر على الفضول حقاً لمعرفة أى حلول طوبوية تلك التى ستبتناها الصين لتحفظ بفقرها رغم ثرائها.

أ : اليوتوبيا ينبغى أن تصبح وعياً قبل كل شئ . وطالما وجد هذا الوعى فلسوف يكون الحل هو خلق الإحساس بأن الثراء خطيئة ، وجرم ، وزلة.

ب : لقد تمت هذه المحاولة من قبل مع المسيحية دون التوصل إلى نتائج مرضية جداً.

أ : ومع ذلك فقد نجحت المسيحية « لعدة قرون » فى أن تجعل من الفقر الحالة المثلى للإنسان وتلك نتيجة لا يستهان بها حتى اليوم . وذلك لأننى ، كما ينبغى أن تضع فى اعتبارك ، لا أتكلم عن كل هذا فى المطلق ، خارج حدود الزمان والمكان ، وإنما نسبياً . فى علاقته مع الزمن والعالم الذى نعيش فيه . فالحالة التى كانت تقترحها المسيحية كانت محددة بصفة « مثالية » . واعترف بأن ذلك كان حكماً مسبقاً عليها بالفشل . أما هذه المرة فلا يجب أن تجعل من الفقر « حالة مثالية » . ينبغى أن يصبح الفقر الحل الوحيد بالنسبة للإنسان ، حالته الواقعية والعادية.

ب : وبأى الوسائل سيتم ذلك كله ؟

أ : لأول مرة فى تاريخها الوجيه جداً فإن الإنسانية كلها ستصير غنية وتتمتع بالكماليات . ولن يكون جزء من الإنسانية هو الغنى فقط . بل أن البشر جميعاً سيصبحون ماعتنيه كلمة ترى . وعندما تعيش الإنسانية جميعها تجربة « الإنسانية فى حالة الثراء » فانها ستغرب بالاجماع فى أن تكون فقيرة.

ب : فلنسلم بذلك أيضاً . رغم أن ثلثى الانسانية فى اللحظة الراهنة ليسوا فقط بعيدين جداً عن الثراء ، وإنما شديدو الفقر أيضاً حتى انهم ليتوصلوا بالكاد إلى إطعام أنفسهم . ولكن لنسلم معك بما تقول . سيكون الثراء إذن معتبراً كخطيئة . وجرم . وزلة . إلا أنه مع ذلك لابد وأن يتواجد فى مكان ما ولو فى خزائن الدول . فماذا سيفعل به الإنسان ؟

أ : لدى فكرتى الخاصة . هل تذكر القراعة ؟

ب : وما دخل القراعة هنا ؟

أ : هل سألت نفسك مرة من قبل عن الأهرام . لماذا هى عملاقة إلى هذا الحد ، ولماذا أنفقوا فيها كل هذا الوقت والعمل والمال ؟

ب : فى الحقيقة نعم . فلماذا إذن ؟

أ : لأنه فيما أعتقد كان ينبغى التصرف بطريقة تجعل الإنسان لا يمتلك إذن سوى الضرورى .



أبداً ماعداً ذلك فقد رمى إلى التهلكة . فالأهرام تقفل فى وقت السلم باثقله الحرب فى وقت الحرب . شئ يستخدم فى تخطيم الثراء وإبقاء الإنسان فى حالة الفقر .

ب : ولكن أين هى أهراماتنا نحن ؟

أ : أهراماتنا هى مشروعاتنا العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر ، وللسفر فى الفضاء بين الكواكب . تلك المشروعات العلمية ، فى جانبها الذى يتجاوز الحد ، وفى عدد الذين تستخدمهم ، وفى الكمىة الهائلة من العمل التى تتطلبها ، إنما هى المعادل للأهرام . فالهرم لم يكن نزوة عابثة فى نظام تيوقراطى استبدادى ، بل كان المحور والمركز الذى تدور حوله حضارة بأكملها . وهذا مايؤديه فى وقتنا الحاضر السفر بين الكواكب .

ب : ولكن الولايات المتحدة ، حتى أضرب لك مثلاً ، تشن الحرب ولها فى الوقت نفسها أهرامها ، أى مشروعاتها لغزو الفضاء . ولم يحل ذلك بينها وبين أن تكون بلداً غنياً .

أ : الولايات المتحدة غنية « على نحو مؤقت » كما أن الصين فقيرة « على نحو مؤقت » . ومثلاً استخدمت الحالة الراهنة للصين لكى أضرب لك المثل على الإنسانية الفقيرة ، أى العادية والإنسانية ، فأنتى ساستخدم الولايات المتحدة لأعطيك المثل على الإنسانية الغنية أى غير العادية وغير الإنسانية

ب : نتحدث عن الولايات المتحدة أم عن الغرب بشكل عام ؟

أ : آخذ الولايات المتحدة كبلد نموذجى للغرب . وحقيقة الأمر إننى إنما أتحدث عن الغرب ذاته .

ب : وفى تقديرى أن الغرب لن يبقى غنياً على الدوام ؟

أ : بكل تأكيد ، لن يبقى كذلك على الدوام . أنه أيضاً يفعل كل مايلزم لكى يصبح فقيراً . ولكن لتترك المستقبل جانباً ولنبق فى الحاضر ، ثم لننظر من أى ناحية يصبح الثراء غير إنسانى وغير عادى .

ب : لننظر فى ذلك .

أ : خذ فرداً من الناس ، لا يهم من يكون ، يريد أن يصنع ثروة عن طريق ابتكار شئ جديد وكمالى تماماً . يريد أن يبتكر على سبيل المثال ، حذاء يعزف الموسيقى أثناء المشى . فماذا تراه سيفعل ذلك المخترع حين يتعلق الأمر بتصنيع ذلك الحذاء بكميات هائلة ويبيعه على نطاق واسع ؟

ب : لا أعرف . ربما سيلجأ إلى الإعلان عنه .

أ : هو هذا بالضبط . سيلجأ إلى عملية الإعلان . بمعنى أنه سيخلق الحاجة إلى الحذاء الموسيقى ، ولاحظ أن تلك الحاجة لم تكن موجودة قط قبل أن يطرح الحذاء للبيع . فما من منتج

سيقول « أننى أبيع لكم شيئاً لاجابة لكم به على الإطلاق » ، بل سوف يردد دائماً « إننى أبيع لكم شيئاً من المستحيل عليكم الاستغناء عنه » . وتلك العملية التى هى تحويل الكمالى إلى ضرورى إنما هى ذاتها التى تخلق المستهلك .

ب : المستهلكون موجودون فى كل مكان ، وحتى الصينى عندما يشتري لنفسه بنطلونا فهو مستهلك أيضاً .

أ : كلا ، أنه ليس مستهلكاً ، بل هو رجل يأتى لنفسه بشيأ هو فى حاجة إليها ، وبناء على فكرة معينة عن الإنسان كونها هذا الرجل ، فذلك الرداء هنا إنما يغطى له ساقيه ويطنه وردقيه . أما المستهلك فهو شئ آخر ، إنه مجرد أمعاء .

ب : هو ذا تعبير قوى !

أ : نعم ، أن المستهلك أمعاء . فرد يشبه تلك الأجسام البدائية التى تتكون فقط من الفم والماسورة الهضمية وفتحة الشرج . هذه الأجسام لاتفعل شيئاً سوى أن تبتلع وتهضم ثم تلتفط .

ب : ولكن الصينى الذى يبتاع لنفسه بنطلونا هو أيضاً أمعاء بالنسبة لانتاج البناتيل .

أ : يوجد فرق هام . فليس المستهلك أمعاء لأنه يستهلك بل لأنه مقتنع ، مثل تلك الأجسام البدائية ، بأن وظيفته هى الاستهلاك . أما الصينى ، الفقير ، فيشتري لنفسه بنطلونا حتى لايبقى عارياً . على حين أن المستهلك الحقيقى متهى لأى استهلاك كان مثل دودة الأرض إذ تترك أى نوعية من الطين تمر فى ماسورتها الهضمية .

ب : أفىكون المستهلك كذلك هو الآخر ؟ دودة ؟

أ : إذا كانت تلك الكلمات : « أمعاء » أو « دودة الأرض » من قبيل الكلمات التى تبعث الضيق إلى نفسك لأنها تحمل معنى أخلاقياً ، فلنتركها جانباً . ولنقل بأن المستهلك حلقة تصل الانتاج بالإستهلاك . حلقة إنسانية ولكنها ليست شيئاً آخر أكثر من حلقة فقط . المنتج والمستهلك يمثلان طرفى دودة الأرض التى كنت أحدثك عنها .

ب : أليس الإنسان إلا منتجا ومستهلكاً ؟ أليس طبيباً ، ولا فناناً ، ولا عاملاً ، ولا فلاحاً ؟

أ : بكلمة الانتاج أعنى البضاعة أو ثمرة الانتاج ، وبكلمة الاستهلاك أعنى « الرواج » . وينطبق ذلك على أكثر المنتجات دقة وأكثرها إسرافاً وعتها .

ب : لدرجة أن الإنسان الغربى لايفكر إلا فى الانتاج والاستهلاك ؟

أ : هو هذا تماماً !

ب : ولايفكر « فى نفسه » ؟

أ : « نفسه » تلك التى تتكلم عنها لاجود لها . أو أنها بالأحرى لاتوجد إلا فى هذه أو تلك من اللحظتين المتبادلتين ، لحظة الإنتاج ولحظة الاستهلاك . ولكن طالما أن الاستهلاك فى واقع الأمر هو الذى يحدد شخصية المستهلك . إذا كان المنتج لا يستهلك لا وجود له لأنه لو وجد مات جوعاً ، فإن المستهلك الذى لاينتج موجود ويأكل فى جميع البلاد رأسمالية كانت أو شيوعية . فلنقل أن هدف الحضارة الحديثة هو الاستهلاك ، أو بمعنى آخر إفراز الفضلات .

ب : افراز الفضلات ؟

أ : افراز الفضلات ، نعم . أن تطرد خارج الجسم كل مايتبقى بعد الهضم . يستهلكه المرء بأقصى ومايستطيع وبأكبر تشكيلة ممكنة من الأشياء . والمثل الأعلى للمستهلك هو أن يستهلك ، وهر يجتهد أن يكون على مستوى مثله الأعلى . ولكن النتيجة النهائية هى إفراز الفضلات . أن حضارة الاستهلاك هى حضارة الفضلات المفززة . وكمية الفضلات التى يخرجها المستهلك هى فى الحقيقة بالنسبة لذلك المستهلك خير برهان على أنه قد استهلك .

ب : حسناً ؛ بيد أن هذه ليست إلا مقارنة ، وهى فوق ذلك مقارنة تنحو منحى غامضاً . بقى أن تبرهن أنها يمكن أن تمتد إلى أبعد من معناها الحرفى الذى يؤكد بأن الانسان لايفعل شيئاً فى العالم سوى أن يأكل .

أ : تسرى مقارنتى أيضاً على كل ماليس بمادة للغذاء ولكنه يستهلك بنفس الطريقة ، بمعنى أن الغذاء الصناعى والإفراز الذى يتبقى منه إنما يتجاوزان دائماً ، مثلما يحدث فى البيوت العصرية أن نرى المطبخ إلى جانب دورات المياه . اذهب إلى الضواحي وسوف ترى المصانع بمخازنها الواسعة وأفرانها العالية التى يتم فيها الإنتاج . وغير بعيد عن المصانع سوف ترى أراضى قاحلة تفرغ بها القاذورات والفضلات والحدائد العتيقة . لقد استهلكت المدينة منتجاتها وهضمتها وتبرزت بقاياها .

ب : أفلا يوجد غير الانتاج الصناعى فى مدينة عصرية كبيرة ؟ هناك ألف شىء آخر ، الثقافة مثلاً .

أ : هناك الثقافة حقاً . المكتبات ، ويائعو الصحف ، ودور السينما ، والتلفزيون ، والراديو ، ثم المطبوعات المختصرة ، والمجلات ، وكتب الجيب ، والموسوعات ، وكتب المنتخبات ، والمبسطات ، والترجمات . بيد أن تلك الثقافة إنما تستهلك بالطريقة نفسها التى تستهلك بها المنتجات الصناعية . انها تزرد ، وتهضم ، وتطرد فى شكل كمية مهولة من الفضلات ، أى العموميات . فمستهلكو الثقافة الذين يأكلون كل شىء لايتغذون من الثقافة ولكنهم يستهلكونها ويبقون ، إذا

شئت ، بالمعنى الشافى ، سئى التغذية . لأن الاستهلاك الشافى لا ينتج إلا البراز الشافى ، ولا شئ سواه .

ب : ولكن ألا يبدو لك كل هذا ، كيف أقول ، تصوراً عاماً إلى حد ما ؟
أ : من المؤكد أنه تصور عام . ومع ذلك ففعال الانتاج والاستهلاك الحديث هو على هذا النحو ، حيث تختفى وراء مظاهره المتعددة فكرة واحدة ، أو بتعبير أدق ، حركة دفع واحدة .

ب : ماذا ؟ فكرة الريح ؟
أ : كلا ، ليست فكرة الريح . بل شئ آخر . فكرة ، أو حركة دفع جديدة ، لم تكن موجودة من قبل .

ب : إنك تثير فضولى . ماهى ؟
أ : بحركة النقود السريعة التى تصاحب دورة الانتاج والاستهلاك يتحول الريح إلى المرتبة الثانية ، ولا يبقى هدفاً فى حد ذاته بل وسيلة لتأمين استمرار الدورة . لا ، ليس الريح أساس تلك الآلة التى تفرز الفضلات ، أى صناعة الاستهلاك ، بل هو شئ آخر .

ب : ماذا ؟
أ : صعب تحديده . يمكن أن نطلق عليه « إرادة القوة » . والواقع اننا سنكون أقرب إلى الحقيقة إذا دعونا « الخوف من العجز » . وماذا تراها تعنى القوة فى الحضارة الصناعية ؟ أنها المقدرة على الانتاج ، أى فى واقع الأمر المقدرة على محاكاة الطبيعة . والطبيعة قوية لأنها تنتج بافراط ودون توقف . والانسان الطبيعى قوى لأنه يتكاثر . وهكذا فان القوة فى حضارة الانتاج والاستهلاك تقوم بالتحديد على أن تنتج بأكثر مافى وسعها . وبهذا المعنى تأتى عملية الانتاج قبل عملية الاستهلاك . بيد أنه من الواضح أنه لو لم يكن هناك استهلاك لما كان هناك إنتاج .

ب : وماذا يمكن أن يعنى هذا ؟ أن الحضارة الصناعية تريد أن تنافس الطبيعة ؟
أ : نعم ، هذا بالضبط ما أريد أن أقوله . الخوف من العجز ، ولذة ممارسة قوته التى تدفع بمصانع السيارات إلى انتاج عدد دائم التزايد منها ، إذا تقوم على نفس قوة الدفع الخلاقة العمياء التى تدفع بسمكة السردين . أن تبيض كل عام الملايين من البيض ، بمعنى أن تدفع إلى الوجود بالملايين من سمك السردين . ومن حمن الحظ أن هذا البيض يلتهم بواسطة أسماك أخرى تضع بيضاً بدورها يلتهم من جديد بواسطة أسماك أخرى وهكذا .. والحضارة الصناعية هى صورة دقيقة لعملية الانتاج التى لا يعترها الكلال فى الطبيعة ، وهى تنحو مثل الطبيعة تماماً نحو وضع نفسها خارج الزمن ، بمعنى أنها لا تريد أن تأخذ بعين الاعتبار مدى طول الحياة البشرية ،

ودورائها المتواصل بين الانتاج والاستهلاك انما تعتبر فى واقع الأمر معادلا لخلود الطبيعة . ولكن ثمة فرقاً بين خلود الصناعة وخلود الطبيعة.

ب : لا نعرف الطبيعة ماتصنع ، وربما من أجل هذا السبب نفسه بالتحديد ، فان ماتصنعه تجيد صنعه . والحضارة الصناعية على العكس من ذلك تأتى عليها لحظة ، لحظة واحدة من الوعى ، وهذا يكفى لكى تنهزم فى مباراتها مع الطبيعة.

ب : وماتلك اللحظة من الوعى ؟

أ : أنها اللحظة التى يرى فيها الإنسان ، الذى هو الحلقة التى لاغنى عنها بين الانتاج والاستهلاك ، يرى فقيها نفسه ويتأمل نفسه . فى تلك اللحظة يرفض الخلود الذى تقدمه له الصناعة.

ب : وهل يقدر المستهلك على فعل ذلك ؟

أ : المستهلك إنسان أيضاً وقبل كل شئ . وهو يأخذ من الانسان على نحو ما مقدرتة على التأمل . أنه يرى نفسه بنفسه .. وينتبه عندئذ أنه إذا كان صحيحاً بالنسبة للطبيعة أن تنتج وتستهلك إلى مالا نهاية ، فان الإنسانية على العكس ليست ملزمة بالانتاج والاستهلاك على هذا النحو اللانهائى ، بل ملزمة على الأصح بأن تعبر عن نفسها داخل حدود معينة من الزمان والمكان تضعها بنفسها.

ب : أفيكون ذلك هو الفرق بين الإنسانية والطبيعة ؟

أ : نعم أعتقد أنه ذاك.

ب : ولكن ألا يستطيع المرء بكل بساطة أن يعبر عن نفسه وهو ينتج ثم وهو يستهلك ؟

أ : سبق أن قلنا بأن الحضارة الصناعية هى حضارة افراز الفضلات ، وهذا معناه أن هدفها لايمكن أن يكون شيئاً آخر سوى هذا الإفراز . ماذا يصنع المرء عندما « يتبرز » ربما كان يعبر عن نفسه .. ؟

ب : كلا، اننى أقول بأنه يخفف عن نفسه ، على أكثر تقدير..

أ : هو ذا، إنه يخفف عن نفسه . أى انه يهين نفسه لحالة الاستهلاك من جديد. وهذا التخفيف هو التبرز » بالتحديد . ولكن لتأخذ حالة الانسان الذى ينتج كثيراً ويستهلك كثيراً ويصاب بعسر فى الهضم . لدينا عند ذاك الدواء « المسهل » ، أى الحرب ، فالحرب تبدو لاغنى عنها ولامرء من وقوعها فى دورة الانتاج والاستهلاك لتعالج المجتمع الذى ينتج ويستهلك من حالات الإمساك المنتظمة التى تعتريه . ففى زمن الحرب يأخذ الجندي مكان المستهلك العادى فى

زمن السلم ، بمعنى أنه يشكل مستهلكاً استثنائياً بالقياس إلى كثافة استهلاكه وكميته وسرعته وتنوعه . إذ فى يوم واحد من أيام الحروب يتم استهلاك ما يعادل استهلاك عام كامل كامل فى أوقات السلم ، والجندى الذى لم يعد يرضيه استهلاك الخبثات والثروات ، يستهلك الآن حياة البشر : حياة أعدائه أولاً ، ثم حياته الخاصة بعد ذلك . نعم ، لأننا لا ينبغي أن ننسى أن المنتج - المستهلك حتى يكون حقاً كذلك ، يتحتم عليه أن يكون متكاملاً وسفاحاً . فدون تزايد فى عدد السكان لا يأتى الانتاج ذو الحجم الهائل الهائل ، وبدون الانتاج ذى الحجم الهائل لا يوجد فائض انتاج ، وبدون فائض الانتاج لا تنشأ الحرب ، أى أن نزعة القتل ليست إلا الوجه الآخر للخصومة .

ب : إذن فالحرب استهلاك للبشر أكثر مما هى استهلاك للخيرات المادية .
أ : أى نعم ! ولقد قيل عنها أيضاً أنها قتل للأطفال يأتى متأخراً عن موعده أى قتلهم بعد أن يكبروا . أن الحرب هى استهلاك للبشر بشكل خاص ، تنفذه بوسائل عديدة ، ابتداء من الحرية حتى القنبلة الذرية . وبطبيعة الحال لعللاقة للحرية بتكاثر عدد السكان فى العالم الحديث لأن لدينا القنبلة الذرية . لكن ليس هناك فرق جوهري بين السلاحين إذ يكمن الفرق بينهما فقط فى قدرة كل منهما على الاستهلاك . والقنبلة فى النهاية مرتبطة بتزايد عدد السكان كما أن تزايد عدد السكان مرتبط بالقنبلة . أريد أن أقول بهذا أنه لو يوجد تزايد فى عدد السكان لما وجدت القنبلة ، أى لما اخترعها الانسان طالما أن الحاجة اليها لم تكن لتنشأ أصلاً . لقد ظهرت القنبلة فى عصر العواصم أو « المتروبولات » التى تضم من خمسة إلى عشرة ملايين نسمة لا قبل ذلك . فبين تزايد عدد السكان وبين القنبلة يوجد نوع من « الاستلطاف » ، إذا جاز أن أعبر على هذا النحو ، أو على وجه التقريب نوع من المجاذبية المتبادلة . فالعواصم الكبيرة الحديثة موجودة لتقدم أكبر انتاج من البشر عرفه التاريخ . والقنبلة موجودة أيضاً باعتبارها المستهلك ، الوحيد الممكن لتلك الكمية الهائلة من الانتاج . وينبذ أنه فى لحظة معينة لا يمكن تجنب اللقاء بين الانتاج والاستهلاك ليحلا مشاكليهما معاً فى وئام وحب . أن القنبلة الماثوسية (١) . فقد تنبأ ماثوس بالقحط كعلاج لتزايد عدد السكان وجاءت القنبلة لتحل محل القحط . غير أن ماثوس كان يبرهن على أفكاره بمصطلحات حضارة سابقة لعصر الصناعة ، فما تنبأ بأن الانسان سيكف بمنتهى السرعة على أن يكون مركز العالم ليتحول - كما قلنا - إلى مجرد حلقة تصل الانتاج بالاستهلاك ولا أكثر من ذلك . وأعتقد أنه سيسلم اليوم عن طيب خاطر بأن القنبلة باعتبارها مستهلكاً للبشر هى أفضل بكثير جداً من القحط والمجاعة .

ب : لا تؤاخذنى ، لكن هناك شيئاً لا أفهمه . أن الانسانية متكاثرة بطبيعتها على أى الأحوال

، أليس كذلك؟ هكذا كانت قى عصور انسانية ، مثلما هى كذلك أيضا فى عصر حضارتنا الحديثة القائمة على الانتاج . وانت على حق تماما فى قولك بأنه لم توجد هذه الخصوبة لما نشأت صناعة المنتجات الكثيرة ، ولما كانت تلك الدورة الجهنمية المستمرة والتي يقال لها دورة الانتاج- والاستهلاك . غير أن الانسان كان دائما منتجا للبشر ، وبالتالي مستهلكا للبشر ، حتى من قبل أن يكون منتجا أو مستهلكا للبضائع المصنعة فى مجموعات هائلة.

أ: أن الضغط السكانى فى العالم القديم لا يشبه الضغط السكانى فى العالم الحديث. فى العالم القديم حدث ذلك الضغط على مستوى الطبيعة ، مثلما كان الأمر بالنسبة للحيوانات تماما . فقد كانت الطبيعة ، لا الانسان ، هى التى تتكفل بالتصرف فى مواجهة انتاج استثنائى من البشر وذلك عن طريق الاستبعاد الاستثنائى أيضا والذي تنجزه بواسطة المجاعات والأوبئة . أما فى العالم الحديث فكل شئ ، على العكس ، يحدث على مستوى الصناعة ، بما فى ذلك تكاثر البشر . وها هنا ، فيما يخيل إلى ، ثمة علاقة وثيقة جداً بين الضغط السكانى أو الديموغرافى . تكمن فى حقيقة أن الانسان ، منتج البشر ، يصبح كذلك منتجا للبضائع . وبين صناعة المنتجات الطبية وتنظيم المستشفيات. ذلك لأن انتاج البشر لا يتم فى الخلوة المعتمة العمياء لفراش الزوجية بقدر ما يتم بعد ذلك بين الأردية البيضاء التى يلبسها الأطباء والممرضات ، فى غرف المستشفيات وقاعات العمليات . أنه فى تلك الأمكنة التى تشبه المصانع كثيرا بكمالها الآلى ، يصبح الانسان منتجا للبشر وليس فى فراشه . هنا يتم انقاذ مستهلكى المستقبل ومنتجى المستقبل من الموت الذى ربما كانت الطبيعة الظالمة والبصيرة بالعواقب قد هبأهم له . وهكذا فان المستشفيات تخرج البشر مثلما تخرج المصانع السيارات والعلب المحفوظة.

ب : وهكذا فأنت تعتقد بأن الانسان الحديث من الآن فصاعداً وبشكل محتوم لن يكون إلا منتجا ومستهلكا للخيرات المادية وللبشر ؟

أ: نعم.

ب : يخيل إلى أننى أستطيع أن أقهم ، بحسب طريقتك فى التعبير عن نفسك ، أنك تنفر من ذلك نفورا عميقا.

أ: هذا صحيح.

ب : إذن فما الحل الذى تقترحه ؟

أ: لا أرى غير حل واحد . وهو فوق ذلك الحل الوحيد الذى يعتمد على الانسان اعتمادا مباشرا.

ب : ماذا ؟

أ : العفة .

ب : العفة ؟ إنها حل قاس إلى حد ما ، أليس كذلك ؟

أ : العفة ؟ إن الفقر والعفة إذا ماتأملناهما جيداً لوجدنا أنهما الحالة الطبيعية للإنسان ، أو ينبغي أن يكونا كذلك اليوم على الأقل ، وفي هذا العالم بالذات . لأنني لا أستطيع أن أتصور كيف يستطيع الإنسان اليوم أن يكف عن أن يكون منتجاً ومستهلكاً إلا إذا أصبح فقيراً وعقياً .
ب : إذا كنت قد فهمت جيداً ، فإن الإنسان الفقير لا يستهلك ، وإذن فهو ليس بحاجة لأن ينتج . والإنسان العفيف من ناحيته لا ينبغي للعالم أطفالاً وبالتالي فهو يفرغ حضارة الاستهلاك من محتواها الخاص بها ، أي من ضرورة إشباع حاجات الجماهير الغفيرة . لا أطفال ، إذن فلا جماهير غفيرة . لا جماهير غفيرة ، إذن فلا إنتاج ولا استهلاك . هذا صحيح . بل هو أيضاً صحيح جداً .

أ : لقد فهمتني خير الفهم . ولاحظ فوق ذلك مدى التشابه بين العملية التي تؤدي إلى فائض الانتاج وتلك التي تؤدي إلى زيادة عدد السكان . ضع مكان الآلة الرئيسية (التي تنتج الأدوات) وهي أم الأجزاء العديدة في الآلات . عملية العناق ، الذي هو آلي أيضاً ، بين زوجين من البشر في أعماق فراشهما . سوف تحصل على ثمرة الانتاج في مجموعات مصنعة بنفس الأسلوب . أننا نستطيع أن نتساءل أين هو الفرق ؟ فهنا في الظلمة ، في حالة من الوعي غير الكامل ، بين البقطة والمنام ، تتحدد ملامح واحد من أفراد البشر . وفي نفس اللحظة هناك في آلاف المصانع وسط ضجيج يسم الأذان ، ينتجون ، دائماً في شكل مجموعات ومن أجل ذلك الإنسان الذي تحدد ملامحه الآن ، آلاف المنتجات التي سيدفعونه إلى استهلاكها بمجرد مولده ، وبمجرد بلوغه مرحلة الطفولة ، ثم بمجرد نضجه . وهذا الإنسان . المستهلك ، من ناحية أخرى ، سيتحول إلى منتج بسرعة ، بسرعة بالغة . وتتغلق الدائرة ولكن حين تنصرف بحيث يكون انتاج البشر أقل من إنتاج الخيرات المادية فلسوف نحصل على فائض الانتاج ، أما إذا كان عدم التوازن عكسياً فسوف نواجه تزايد عدد السكان (أو فائض السكان بمعنى أصح) . العفة فقط هي التي يمكن أن تكسر إنتظام الدورة وتزيل فائض الإنتاج وفائض السكان معاً ، بما يصاحبهما من مركب يشع تسير فيه الحروب والمجاعات والبؤس . العفة وحدها . والفقر بطبيعة الحال .

ب : ولكنك تنسى أن ذلك الزوج من البشر الذي وصفته لتوك بنفور لامبر له ، حين يتصور المخلوق الجديد المرصود للانتاج والاستهلاك فانما ينجز شيئاً سامياً وعظيماً هو فعل الحب .

أ: لماذا نطلق كلمة الحب على ما ليس إلا علاقة آلية ؟ أن عضو الذكورة يَضمَل فى المرأة مثل محرك المضخة . وعند درجة معينة من الاستثارة التى يولدها الاحتكاك تنطلق حيوانات الذكورة ويتحدد الطفل ، فما علاقة كل ذلك بالحب ؟

ب : ولكن من الممكن أن يكون هذا الرجل وتلك المرأة متحابين . لقد كانا يحبان بعضهما . ماأدرانا نحن ؟

أ: لا يؤدى الحب إلى العلاقات الجنسية ، بل إلى العفة.

ب : آه ! لم أكن أعرف هذا ! تلك أول مرة أسمعها فيها يقال أمامى.

أ : أنتى أقول الآن وفى هذا العالم بالذات أن الماضى والمستقبل قليلا الأهمية بالنسبة لى ولا يعينانى.

ب : أفصح عما تقصده ، فلست أفهمك.

أ : اليوم ، هنا ، فى هذا العالم بالذات ، الحب والعلاقات الجنسية غريبة بعضها عن الآخر، بل هى أيضا متعارضة ومتعادية . لم يعد « الفعل الجنسى » شيئا آخر سوى الإنتاج . أما الحب فعلى العكس .. أنه الحب . أنه الابتكار ، والبحث ، والاشراق ، والسمو ، والتلاقى ، والخيال ، والتأمل . أنه كل شيء ماعدا الإنتاج.

ب : « الفعل الجنسى » ليس فقط سوى الإنتاج كما تكرر علينا أنتى إلى حد الملل ! . أنه فى غالب الأحيان يتم بين رجل وامرأة يريد كل منهما أن يمنح الآخر لذة متبادلة . والشبق غير منتج . أنه يمكن أن يصبح فى بعض الأحيان صورة من صور المعرفة.

أ : لكم أفتنى ذلك ! حقاً لقد كانت تلك الصورة من صور المعرفة فى ماضينا العثيق جداً ، ماضينا البدائى والسحري . ولكنه الآن ليس إلا عملية للإنتاج مبنية عما تنتجه . أريد أن أقول أن اللذة التى يتبادلها الرجل والمرأة اليوم ليس لها أى هدف إلى المعرفة . وهذا صحيح لدرجة أنها لا تختلف الا فى الظاهر عن العصر الذى هو بشكل واضح وصريح صورة من صور الاستهلاك.

ب : يا للأسف .كنت على وشك أن أراك تستثنى طوعية حالة الشبق التى تنحو لأن تكون صورة من صور المعرفة . فأيا كان ذلك الانسان العف الفقير الذى تنادى به فانه سوف يصبح بسرعة مهدداً بالانقراض . إذ حين تتوقف الإنسانية عن الإنتاج وعن الاستهلاك وعن الانجاب .. فانها ولاشك سوف تختفى بمنتهى السرعة.

أ: لست أقول بأن الإنسانية ينبغي أن تختفى ، رغم أننا اليوم لانعرف تماماً الأسباب التى

يتحتم من أجلها أن تستمر في البقاء . وإنما أقول بأن عليها أن تتخفف من انتفاخها ، إذا صح التعبير ، وأن تتقلص ، أن تنتقل من حالة الافراط الراهنة إلى أبعاد جوهريّة . غير أنها حين تبلغ مشارف الانقراض فإنها ستعثر من جديد بسهولة ، ويفضل الحب نفسه الذي يمكن أن يكون قد كاد أن يقضى عليها ، على أسباب جديدة قوية لأن تتكاثر مرة أخرى . أن الأمور الانسانية ، مثل أمور الطبيعة لا تتبع تقدماً مطرداً يتكون من أسباب تتلوها نتائج ، ولكنها تقضى في فترات نوعيّة.. ولا أرى أى مانع في أن تأتي من بعد حضارة فائض السكان وفائض الإنتاج حضارة أخرى ذات صفات مخالفة تماماً.

ب : أريد أن ألفت نظرك إلى أنك تكرر ماسبق أن قاله غيرك من قبل . فكثيرون هم الذين اقترحوا من قبلك « عصوراً وسطى » جديدة . وقد تبين من بعد أن ذلك لم يكن سوى الوجه الآخر المنمق والمنحط للحضارة الصناعية.

أ : لماذا نتحول نحو الماضي ؟ اننى لأدعو إلى عصر وسيط جديد ، وإنما أريد بكل بساطة عالماً مخلوقاً من أجل البشر لا من أجل الأصنام.

ب : ولكن التكنيك ، على أهميته البالغة اليوم ، لا يبدو أنه لايزدى الى هذا العالم . بل على العكس .

أ : التكنيك يمضى اليوم نحو الالتقاء بحاجات الجماهير التي تنتج وتستهلك ولكنه يمكن تماماً أن يغير اتجاهه غداً ، فيسير نحو الالتقاء باحتياجات المجموعات الانسانية النادرة ، الفقيرة ، والقليلة الخصوصية.

ب : ماذا ؟ نتحدث عن جزيرة بروسبيرو في « العاصفة » مع الساحر الحكيم وبضعة من الرجال والنساء والشباب الذين لاسلالة لهم يتنزّهون على الشواطئ المهجورة تحيط بهم موسيقى سماوية وأصوات غامضة وترفرف من حولهم أرواح خبيثة لاترى ؟
أ : لا أدري . والأفضل ألا نتحدث فيما هو مستحيل الحديث فيه .

ب : يبدو لى أننا قد ابتعدنا كثيراً عن الصين التي كانت نقطة الانطلاق في مناقشتنا ، تلك المناقشة التي ليست في النهاية إلا مقدمة لكتاب صغير عن الثورة الثقافية . فما علاقة الصين إذن بكل هذا ؟ ان الصينيين فقراء ، هذا نعم ، ولكنهم كذلك بشكل مؤقت ودون إرادة منهم كما اعترفت انت بنفسك في نهاية الأمر . أما بالنسبة للعبة الآن فليس الصينيون هكذا بكل تأكيد ، على الأقل بحسب ماتعنيه أنت بتلك الكلمة ، وحتى إذا كانوا قد كفوا عن ممارسة الشبق كما كان يقال عنهم في الماضي . بل على العكس فهم ينحون نحو التكاثر ، وهذا صحيح حتى



أن الدولة تصرفهم عن الزواج قبل سن الثلاثين . فماذا نصنع بتلك الصين التي كانت سبباً في مناقشتنا ؟

أ: لن نفعل بها شيئاً . وسأكتفى بأن أكرر أنني أردت أن أشرح لك وأن أشرح لنفسي سبب ذلك الشعور بالراحة والعزاء الذي أثاره في نفسي مشهد الفقر في الصين . هذا كل شيء . وكون اليوتوبيا الصينية الآن شيئاً مؤقتاً وعابراً أو أنها ينبغي أن تدوم للأبد ، فذلك مسألة أخرى . لقد جعلت أنا منها أساساً لهذا الحديث . وهذا كل شيء أيضاً !

مورافيا وثورة « ماو » الثقافية

عرض : أحمد الشريف

جاء في تعليق الناشر العربي على كتاب « ثورة ماو الثقافية » إنه عندما صدر الكتاب للكاتب الإيطالي المعروف « ألبرتو مورافيا » أحدث الكتاب ضجة كبيرة في أوساط الرأي العام الأوروبي ، ذلك لأن هذا الكتاب يمثل شهادة صادقة لكاتب كبير حول موضوع الثورة الثقافية الصينية ، وهو موضوع كان وما زال مثيراً بالنسبة للعالم ولكنه لم يكن واضحاً ولا مفهوماً على صورته الحقيقية خارج الصين . ولذا جاءت شهادة ألبرتو مورافيا وثيقة مهمة بالنسبة للضمير العالمي كله ، فليس مورافيا متهماً بانحيازه للصين حتى يكون هناك شك في الصورة التي يرسمها للثورة الثقافية أو حتى تكون هذه الصورة متهمة بالنقص أو عدم الأمانة على أن ما يعطى هذا الكتاب مزيداً من القيمة والأهمية هو الروح الفنية الساحرة الأصلية التي تملأ صفحات الكتاب ، فلقد عاش مورافيا مع الثورة الثقافية الصينية بقلبه وعواطفه وحساسيته الفنية ولم يعيش مع هذه الثورة بعقل مجرد أو فكر بارد ولذلك جاءت الصورة التي رسمها للثورة الثقافية صورة مليئة بالحياة والتركيز والجمال. مترجم الكتاب هو فنان شاب خسرت حياته الثقافية العربية في ٢١ أكتوبر ١٩٧١ ، كان

وقتها فى الرابعة والثلاثين من العمر . ويسرد المترجم الراحل وحيد النقاش فى مقدمته ، الأسباب التى دفعته لترجمة هذا الكتاب « أعترف بأن فى اختيارى لكتاب مورافيا هذا شيئاً من التحيز ، فمورافيا معروف على نطاق عالمى كروائى وكاتب قصة ، ولعل هذا الجانب هو الذى أغرائنى حتى من قبل قراءة النص الفرنسى لكتابه ، بنقله إلى العربية ، لإحساسى بأن موهبته الروائية لا بد وأن تجعل من رحلته إلى الصين أثراً أنيباً من الطراز الأول » . بعد استعراض وجهة نظر الناشر والمترجم فى الكتاب ، آن لى التجوال بين شعاب ودهاليز « الثورة الثقافية » الكتاب يبدأ بحوار فلسفى حول الصين ، يدور الحوار بين «أ» و«ب» حول الفقر والثراء والانتاج والوفرة .. إلخ دائماً السؤال والجواب ينصب حول تجربة الصين الثقافية واشتباك هذه الثورة بالداخل والخارج ولكن ماهية هذه الثورة الثقافية التى جعلها مورافيا أهم حدث وقع فى العالم الشيوعى منذ حركة المراجعة للنظام الستالينى؟ الثورة الثقافية فى الأمر تعنى بالتحديد مايدل عليه مبناهما اللفظى ، أى أنها ثورة لم تندلع منذ بدايتها على المستوى الاجتماعى أى على صعيد التركيبات الاجتماعية ، وإنما اندلعت على المستوى الثقافى أى على صعيد البناءات الفوقية . إن ماو مفجر الثورة الثقافية الصينية كتب كثيراً مثل جميع الزعماء الشيوعيين بيد أنه حسب تعبير مورافيا ، على خلاف الآخرين قد فعل بها شيئاً خلال فترة نشاطه الطويلة ، إذ كان فى وقت واحد رجل سياسة ؟ ومحرّضاً وقائداً عسكرياً ، ومشرعاً ، وفيلسوفاً ، وشاعراً ، واقتصادياً إلخ ، وهكذا كتب عن كل شىء . إنه لينين الصين ، وتروتسكى وستالين الصين وماياكوفسكى الصين أيضاً . ويعد وصف مظاهر الثورة الثقافية من رقصات وموسيقى وجرائد وصور فوتوغرافية لماو فى أوضاع عديدة ومناسبات عديدة ، وأشياء ورموز مقدسة ، يستخلص مورافيا من كل ذلك عنصرين : الرئيس والجمهير . فالثورة الثقافية تبدو مكونة من هذين العنصرين ، كما أنها تتجلبل وتتجاوز وتتجنب وساطة مثقفى الحزب أو مثقفى الليبروقراطية ، بل إنها على العكس تهدف إلى إقامة علاقة مباشرة بين ماو والشعب عن طريق الراديو والجرائد الحائطية والمظاهرات . وثانياً - وتلك ملاحظة أكثر أهمية أيضاً - فإن هذا الشعب ، رغم أن المسألة تتعلق بمجموع الشعب كله ، إنما هو الجزء الشاب من الشعب ، أولئك الذين هم دون الثلاثين عاماً . ومعنى ذلك أن ماو ، لكى يفجر الثورة الثقافية ، قد توجه إلى أقل أجزاء الشعب خبرة ، وأقلها تمتعاً بالبحس النقدى ، وأكثرها عنفاً واستعداداً للهدم ، وأشدّها قدرة على الحماس .

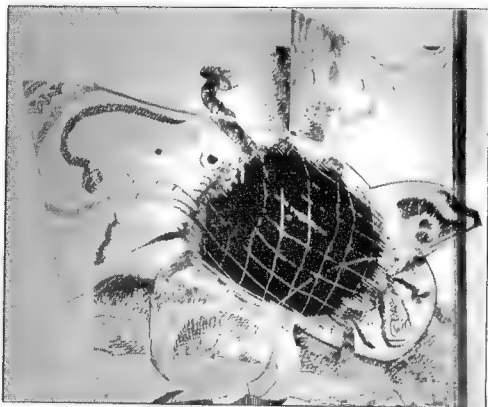
الجدير بالذكر أن تفرد الثورة الثقافية والثورة الصينية بصفة عامة ، يرجع إلى تلوين

ماركس بتعاليم كونفشيوس غير أن ما هو أكثر أهمية من صلب أفكار ماركس بتعاليم كونفشيوس الذي بدأه ماو ، ذلك التلون الكومفشيوسى الفريزى والتلقائى الذى أخضعت له جماهير تلك الماركسية ذات التعبير الصينى التى هى الماوية . فليس الأمر متعلقا هنا بعملية فكرية كما هى الحال بين ماو وماركس وإنما بعملية هى فى طابعها العام عملية دينية وفق تعبير مورافيا . ولكن ما أصول هذه الثورة وأبعادها الأخرى؟

يقول مورافيا ، إننا ولكى نفهم جانباً كبيراً مما حدث فى الصين منذ شهر يونيو عام ١٩٦٦ ينبغى أن نعود للوراء حتى سنة ١٩٢٧ ، ويوسعه أن يقول بأن الخلاف بين ماو وبين الاتحاد السوفيتى والذى هو فى رأى مورافيا أصل الثورة الثقافية ومنبعها إنما يرجع إلى ذلك التاريخ . كان الحزب الشيوعى الذى لم يكن قد تكون إلا منذ فترة قصيرة، يجد نفسه واقعاً تحت تأثير ستالين تماماً ، وربما لم يكن ماو بوصفه واحداً من قادة الحزب فى ذلك الوقت ، يفعل سذاجة ثورية كانت قاسماً مشتركاً بين الكثيرين من أولئك القادة حتى فى الغرب ، يشك فى أن ذلك الديكتاتور المسكوفى البعيد لا يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ على نحو ما . ولكن ستالين خلق كارثة سياسية وعسكرية رهيبة بمجموعة متلاحقة من التعليمات والمواقف الزائفة نبتت من مفهوم تجريدى وشخصى وجاهل بالوضع الحقيقى للصين . فلقد أراد ستالين لأسباب تكتيكية محضة أن يتعاون ماو والشيوعيون بأى ثمن مع تشانج كاي - تشيك، ومع حزب الكومنتانج القومى.

وفجأة انقلب تشانج والكومنتانج ضد ماو وذبخوا أنصاره فى كل مكان استطاعوا فيه ذلك . عشرات وعشرات من آلاف من الشيوعيين ذبحوا فى كانتون وشنجهائى ويكن ، ونجا ماو من الكارثة بأعجوبة ، فبدأ بمن تبعوا معه من جيشه الصغير زحفه الشهير صوب الشمال . هذه الأخطاء التى ارتكبها ستالين ، من المؤكد أن ماو قد تذكرها حين فجر الثورة الثقافية بعد ذلك بثلاثين عاماً من الأبعاد الأخرى للثورة الثقافية ، أن ماو عندما قام بالتطهير الكبير - لأن الثورة الثقافية هى فى جوهرها عملية تنظيف هائلة وتطهير لانظير له - بطريقة خاصة جدا . لم تنفذ تلك العملية بواسطة بوليس سرى على النمط الستالينى ، لأن الصين أولاً لا يوجد فيها بوليس سرى ، ثم لأن هذا التطهير إذا كان يهدف إلى ضرب البيروقراطية فليس من الممكن الاستعانة بالبوليس السرى الذى هو فى حد ذاته بيروقراطية مثل جميع البيروقراطيات الأخرى . كلا إن ماو فى تلك المناسبة ، شأنه فى مناسبات أخرى عديدة لم يستمع إلا لنبضات قلبه هو ، قلبه الذى ظل وفيماً على نحو فياض بالسذاجة والحنين إلى بطولة سنوات الحرب

الأهلية ، ومثلما حدث في ذلك الوقت وجه النداء إلى الجماهير ، وإلى الشباب من بين الجماهير ، وإلى الأكثر: شباباً من بين الشباب ، ولقد كان يخيّل إليه أن أقدامه لم تعد تلمس الأرض وأنه لم يعد يملك نفس القوة التي كانت له في الماضي ، ولكن هاهو بفضل الثورة الثقافية ، ولأنه استأنف علاقته بالجماهير ، يضع أقدامه من جديد فوق الأرض فتعود إليه القوة. إحدى الأفكار الأساسية للثورة الثقافية التي تتكرر مرات ومرات في كتابات ماو هي أنه ، على عكس ما حدث في روسيا المراجعة والمنحرفة نحو الرأسمالية ، فإن ديكتاتورية البروليتاريا ، تظل في الصين خلال مدة طويلة جداً في المستقبل ، وأنه بالتالي ينبغي الاحتفاظ بحماسة الصراع الطبقي على أشدها ، من ضمن أهداف الثورة الثقافية كذلك ، جعل الصين الزراعية ، أي الصين الخالصة ، البسيطة ، والبكر ، المتكاملة إنسانياً ، تقفز القفزة الرهيبة من الحضارة الحرفية والزراعية إلى الحضارة التقنية الصناعية . وتحاول الثورة الثقافية بشكل أساسي فيما يبدو إعادة بناء نوع من المحافظة الطبيعية في الصين ، متلائمة مع العصر الحديث ، بمعنى أن تكون قادرة على الاستمرار والبقاء لآلاف من السنين كذلك التي كانت في عصر الامبراطورية القديمة. (في ختام العرض ، استعين لطرح مورافيا هذا السؤال وإجابته عليه : لم ، كانت هذه الثورة وماهى أهدافها الخفية ؟ لقد أجاب على السؤال الشائك قائلاً ، إن الثورة الثقافية مقدمة ، ربما كانت غير واعية ، للحرب ضد الولايات المتحدة وفي هذه الحالة ، بتدمير كل ما هو غربي ويخلق حضارة الحرمان الغربية بإزاء حضارة الاستهلاك الأمريكية تهيب الصين لنفسها أحسن الظروف لمواجهة الصراع ، الافتراض الثاني ، أن الثورة الثقافية باختصار ، هي نوع من السور العظيم ، الاستقلالي والقومي ، تتجو الصين بواسطته ، وتلك حقيقة ليست جديدة في تاريخها ، إلى الانغلاق في داخل حدودها الثقافية الخاصة لفترة طويلة من الزمن ، غير واعية ببقية العالم ، مكتفية بذاتها . ويخيّل لي أن الافتراض الثاني هو الأكثر احتمالاً ، وهذا لأننا لو نظرنا بامعان لرأينا أن الثورة الثقافية تبدو عملية تهدف إلى بناء أرثوذكسية نهائية مرة واحدة وإلى الأبد . وليس من قبيل المصادفات ، خلال التصعد القائم بالعالم الشيوعي بين « المراجعين » وأصحاب العقيدة ، أن تكون الصين على رأس هذه الفئة الأخيرة . ومن جهة أخرى فإن الثورة الثقافية - وهنا تكمن المفارقة - تسعى بحركتها المسعورة المتواصلة إلى خلق حالة ثبات مطلق ودائم. وهذا التناقض ليس أمراً جديداً في تاريخ الصين . فحتى الأرثوذكسية الاجتماعية الكونفوشيوسية كانت تحضنها ظاهرياً السكونية والصوفية التأوية . وواقع الأمر أنهما وجهان متبادلان لثقافة واحدة.



أكثر من صمت !

(اطلبوا الشعر واثقوا الصين)

شعر: هاجين

ترجمة وتقديم: طلعت الشايب

الذين صنعوا التاريخ .. وخدمهم التاريخ ١

" هاجين " شاعر صيني من مواليد ١٩٥٦ ، اسمه الأصلي " زيو قى جين " والقصائد المترجمة هنا تقدم طرفا من تجربة مريرة فى الصين فى ستينيات وسبعينيات القرن الماضى ، وهى ليست تجربة شخصية محددة بقدر ماهى تجربة وطن بأكمله ، حيث تستشير ذكريات تلك الحقائق الصعبة التى لا تبلى بمرور الزمن.

كانت هناك أمور أكثر إثارة للرعب فى الثورة الثقافية التى شهدتها الصين ، ولكنه لا يقصد فى هذا الكتاب أن يروى حكايات مرعبة ، وإنما يقدم مشاعر الناس عن موقفهم تجاه تلك الأحداث الجسام . البشر فى هذه المجموعة الشعرية " بين أكثر من صمت " ليسوا مجرد ضحايا للتاريخ وإنما هم صانعوه . ويدونهم يبقى تاريخ الصين المعاصر صفحة بيضاء

التحق " هاجين " بالجيش الصينى فى ديسمبر ١٩٦٩ قبل أن يبلغ الرابعة عشرة ، كانت المدارس قد أغلقت إلا أن التلاميذ كانوا يستدعون من وقت لآخر لكى يقوموا بنسخ مقتطفات من أقوال " الرئيس المعلم " ماوتسى تونج ، " أيامها كان يقال إن الروس يخططون لغزو الصين ولذلك كان الجميع يريدون أن يدافعوا عن الوطن " ، خدم " هاجين " فى القوات المسلحة لمدة خمس سنوات ، ثم استأنف حياته الدراسية فى ١٩٧٨ ثم ذهب ليوصل دراسته فى جامعة " برانديز " ، ولأن والده كان ضابطا بالقوات المسلحة ، لم يذهب إلى الريف أو المناطق البعيدة - مثل ملايين غيره - لإعادة تأهيله وتربيته أيام الثورة الثقافية . وبالرغم من أنه يعتبر نفسه شخصا حسن الحظ ، إلا أنه يخاطب أصحاب الحظ السيئ

الذين اختفوا فى قاع الحياة ، أولئك الذين صنعوا التاريخ وخدمهم التاريخ .
القصائد المترجمة والمنشورة هنا مختارات من مجموعته " بين أكثر من صمت " التى
كتبها بالإنجليزية وصدرت عن جامعة شيكاغو - ١٩٩٠

● حديث الجندي الميت

(فى عام ١٩٦٩ مات أحد الجنود فى حادث غرق سفينة وهو يحاول أن ينفذ تمشالا من
الجيس للزعيم " ماو " ، منح الجندي وسام الاستحقاق من الطبقة الثانية ودفن عند سفح أحد
الجبال فى مقاطعة هنشن)

سئمت رقدتى فى هذا المكان ،
الجليل ليس سيئا .. ولا النهر ...
أحيانا يأتى إلى هنا دب أو خنزير برى أو غزال ،
كأننا مجموعة من البشر المنبوذين ،
هنا .. أشعر بالوحدة ، وأفتقد البيت ،
وعندما يجئ الشتاء
يصبح الطقس شديد البرودة
والآن .. أبصرتك قادما مثل سحابة صغيرة
تجول فوق أرض معشبة ،
أدركت أنه لابد أن تكون أنت ،
لأن أحدا لم يأت إلى هنا منذ سنوات .
لماذا جئت معك بنبيذ وشواء وعملات ورقية مرة أخرى ؟
لقد قلت لك عاما بعد عام
إننى لست بمن يؤمنون بالخرافات
هل جئت معك بالكتاب الأحمر ؟ .. بالكنز ؟
لقد نسيت بعض العبارات
وأنت أدري بضعف ذاكرتى ،

وهكذا نسيتُه مرة أخرى هناك فى البيت !
لماذا نسيتُه ؟

وماذا عن التمثال الذى أنقذته ؟
هل ما يزال فى المتحف ؟

وهل زعيمنا العظيم بصحة جيدة ؟
أتمنى أن يعيش عشرة آلاف سنة !
فى الأسبوع الماضى حلمت بأمننا

وهى ترى وسام الاستحقاق لأحد الضيوف
ما زالت فخورة بابنها

وكانت رأسها مرفوعة وهى ذاهبة إلى الحقل
إلا أنها كانت تبدو أكبر سنا من العام الماضى ،
ولون شعرها الأبيض أزعج عيني.

لم أر أختنا الصغيرة
لا بد أنها كبرت .. هل لديها صديق الآن ؟
لما تبكى ؟ قل شيئا ..

أتظننى لا أستطيع أن أسمعك ؟
فى السنوات الأولى كنت تأتى
وتقف أمام قبرى وتقسم بأنك ستخذلنى قدوة لك ،
وفى السنوات الأخيرة ،

كنت تبكى فى كل مرة ..
عليك اللعنة .. لماذا لا تفتح فمك ؟
لا بد أن شيئا ما قد حدث !

ماذا ؟ لماذا لا تنطق ؟

• السير نحو الشهادة •

أصدر القائد الأمر ،

تقدمنا ...

كنا نرفع الأذرع حتى تصل إلى مستوى الأكتاف

وكان كل منا يلوح جاره بطرف عينه

لكي نحافظ على استقامة الصفوف ،

كنا نسير وكأننا في عرض عسكري

رغم أننا كنا نعرف ، أنه مجرد تدريب ،

ثم توقفنا أمام حفرة لجمع القمامة

كانت كبيرة وعميقة..

بقينا على حافتها وكنا نسير في مكاننا ..

" إلى الأمام .. سر " من قال قف ؟

كان القائد يصرخ .. " لو متم .. سيعرف

أهلكم أنكم شهداء "

... وسرنا إلى الأمام ..

كان من السهل أن تصبح شهيدا ..

وكانت هناك طرق كثيرة لذلك !!

• صفحة من مفكرة تلميذ!

راديو بكين أذاع أخبار الانتصار،

تم إسقاط ٤٧ طائرة أمريكية ،

كنا سعداء ونحن متعلقون حول الراديو

وكنا فخورين بأعمامنا الفيتناميين

الذين يسقطون الطائرات الأمريكية .

مثلماً يصطادون العصافير ببنادق الرش.

قررت مدرستنا أن تقيم احتفالا كبيرا ،

كما فعل الناس في بكين بالأمس،

لدعم الشعب الفيتنامي البطل
ولإدانة الوحوش الأمريكيين ،
ستكون هناك دعوة للتبرع ،
أعرف أن كل التلاميذ وكل المعلمين
سوف يتبرعون بكل مالههم
أنا سأتبرع بمصروفي للفيتناميين
معى خمسة وثمانون سنتا
لايهم .. إن لم أشتتر حلوى هذا الشهر
فى الأسبوع الماضى
نظمت المدرسة مسابقة فى الكتابة
كان الموضوع " ماذا أفعل لمساعدة الفيتناميين؟"
لم أفر بالمسابقة .. لم يكن قلمى قويا ،
فازت بالجائزة " منج منج" ،
التي أنهت مقالها بهذه العبارة العبقريّة :
" كطفلة ، ينبغي أن أحافظ على طموحى
بأن أطرد الذئاب الأمريكيين من الأرض
ذات يوم !"
هنأناها ، ووعدناها بأن نفعل مثلها ..
عندما نكبر !!
* لأننا لا نجرؤ على الطموح !
كنا كلنا أطفالا أبرياء .
أمالنا متواضعة ،
وفى ذلك الصباح .. عندما نادى المعلم أسما منا ،
وقفنا وكنا نقول على استحياء ..

عندما تكبر نريد أن نكون :
" جنديا .. معلما .. عاملا .. مزارعا .."
ولكنك أعلنت دون تردد :
" هدفي أن أكون رئيسا لبلادنا "
انزعجت المعلمة .. انتابها الفزع الأكبر !
وانفجرنا نحن في الضحك
حتى أنت .. ضحكت !
ضحكت مثل ديك صغير يقف على رأس حقل قمح ،
ليحي شمس الصباح المشرقة !
في اليوم التالي ،
عينوك لكى تشعل الموقد فى غرفة الدرس
طوال فصل الشتاء...
ولعدة سنوات كنا ندعوك " الرئيس وانج "
ثم نشرثر من وراء ظهرك :
يا له من أب له كبير !!

• صبي فى الثالثة عشرة يتهم معلمه !

كم مرة كنت تحدثنا
عن شجاعة أولئك الشهداء الشوريين
الذين لم يضعفوا تحت وطأة التعذيب
كانوا يوثقون فوق كراسى التعذيب
وفوق أقدامهم القرميد الملتهب ،
كانوا يجبرون على مشاهدة إعدام رفاقهم ؛
إلا أنهم كانوا ثابتين .. لم يهتزوا ..
كان الأعداء يدقون المسامير فى أطرافهم

ولكنهم لم يكسروا إرادتهم..
وكنت تقول لنا :
لكم أن تتخيلوا يا أبنائي الأعضاء
كم كان ذلك صعبا ومؤلما ،
لأن كل إصبع متصل بالقلب...
وبالرغم من ذلك ..
لم يستسلم أبطالنا
وعندما جاء الحرس الثوري ليأخذوك
كنت وديعا ..
لطموك على وجهك..
كنت مذعورا...
لم تقو على النطق
وأثناء تجريسك ،
كنت تردد كل ما يطلب منك أن تردده
لدرجة أن تقول عن نفسك :
" أنا بيضة سلحفاة "
وفى الصباح التالي ،
رأيتك تركض ضمن فريق " الوحوش والشرطيون "
وكنت أسمعك تهتف معهم :
" اللين مع من يعترف "
ولاحظة مع من يرفض "
" نحن أعداء الثورة "
ونستحق الموت مائة مرة "
" لاهد من التخلي عن ذواتنا القديمة ..



ولنبداً حياة جديدة"

أستاذى :

كيف تتوقع منى أن أحضر دروسك مرة أخرى،

وأن أستمع إليك كتلميذ لحبيب ؟

• ليلة سعيدة !

بعد عشرة أعوام أعمال شاقة

فى مزرعة الخنازير

أخبروك صباح أمس

أنه قد أعيد تأهيلك

وأنك ستعود إلى المدينة

التي تعمل بها صحفياً

ليلة أمس

كنت تبتسم لنا سعيداً ، ولأول مرة .

ثرثرنا طويلاً .. وشرينا النبيذ

مع النقانق التي كنا نحفظ بها لمناسبة خاصة ،

حتى السجائر كانت تضوى فى أيدينا

وتبرق مثل النجوم ونحن فى السقيفة الصغيرة

كنت تتكلم عن خطتك المستقبلية

وأنك مازلت فى الثامنة والأربعين ،

وأمامك سنوات فى العمر ممتدة

لتقوم بأشياء كثيرة

كنت تتكلم وتتكلم

حتى أصبح لسانك ثقيلاً لا يقوى على حمل الكلمات ،

ومع ذلك كنت تضحك وتضحك

وكأنك فزت بالماراثون ...

وصباح اليوم

استيقظنا كلنا مبكرين لكى نودعك

ولكنك لم تقم من رقدتك

فشلنا فى أن نوقظك

كنت ترقد بإهمال ولا مبالاة،

مبيتا فوق سريرك الحجري !!

● إعداد ثورى مضاد

لم يعد لتوسلاته جدوى ..

استجدهم أكثر من مرة

لكى يسمحوا له بأن يتكلم أمام قائد المستشفى العسكرى،

قالوا له إن أحدا لن يستمع إليه ،

وإنه مجرد شخص فاسد

ولا يستحق سوى طلقة واحدة !

وقال قائد الفرقة العسكرية:

" لدينا أوامر بسلخ جلدك

لترقيق الحروق الكبيرة فى جسد " ليولى "

الذى خاطر بحياته لإنقاذ الحبول

فى الحظيرة المحترقة !

هيا !! "

ثم أخذوه إلى التلال خلف المستشفى .

كنا وقت الغداء .

ومكبر الصوت يصرخ بالموسيقى

لثلا يسمع أحد صوت الطلقة فى الغابة.

وتوقفوا عند معبد مهجور
كان القرويون قد سرقوا أحجاره وأخشابه ،
وعلى البعد ، كان ضوء يشع مثل دودة ضاوية ،
لم يعرف إن كان نجما أو مصباحا
لأشئ بهم ، ظنه النجم القطبي
هم الوحيد ، كان أنه لم يبلغ التاسعة عشرة بعد ،
وأن والديه لن يعرفا كيف اختفى .
نزعوا الفتوة من فمه ، وقالوا :
" الآن تستطيع أن تتكلم إن كنت تريد "
وفجأة .. بدأ يصرخ
" اللعنة عليكم جميعا ...
اللعنة على المستشفى كله ،
وليولد أطفالكم مشوهين ، الموت لهم جميعا ...
اللعنة على " ليولى " .. وعلى أسرته .
ولتصعقهم الصاعقة "
ورفعوا مسدساتهم ،
ورفع هو يديه المصفدتين:
" عاش الحزب الشيوعي الصيني ،
عاش "
وانطلق أحد المسدسات
كان يريد أن يصرخ " .. الرئيس ماو "
ولكنهم لم يمكنوه من إكمال عبارته ،
جاءت الطلقة فى قضيبيه مباشرة ،
وهى أفضل طريقة للحفاظ على الجلد

صالحا للاستخدام !!

• طرق •

تحت قدمي طريقان .. بوعود مختلفة ، ..
أحدهما يؤدي إلى بستان مليء بالكمثرى والمشمش ،
والثاني إلى بهو فسيح حيث قاعة سينما ،
وحيث إن عقلي لا يستطيع أن يختار بينهما ،
فإن كل ساق منهما تتبع رغبتها ،
اليمنى تتجه ، بقوة ، يمينا ..
واليسرى ، بثقة ، يسارا
ويسيرى فى الطريقين
حولت رأسى إلى بالون أحمر ..
يمضى إلى أعلى !!

• إلى شاعر صيني قديم •

فى تلك الليلة ،
كنت فى حالة سكر شديد
ألقيت الناي بقوة فوق الطاولة الحجرية ،
لم يستطع القمر أن يعدل الكؤوس المقلوبة ،
الكؤوس تبعثرت
رغم أنه كان يشاهد سيفك
وأنت واقف على جسر طويل وحيد ،
القصاصد المكتوبة على قصاصات الورق
ذهبت مع الريح ،
وتركتها تسقط فى النهر
النهر الذى كان مليئا بالضفادع وبراعم التفاح ،

" ماجدوى أن تكون مشهورا كشاعر؟ "
كنت تهدد فى الليل المغطى بالضباب
" كل شئ سيصمت بعدنى بألف عام .. بعدى! "
ورفعت يدك الخالية

" دعنى أشرب " ، وسقطت على الأرض ،
" دعنى أنام " ، وفت عميقا على الجوف ،
والآن ، وبعد أن مرت ألف عام ،
اليوم ، أضع يدى فى نهر آخر.
ماؤه صاف ودافئ ،
من بين أصابعى ،

تتسرب الضفادع وبراعم التفاح
بينما تنساب عبر ذراعى
قصائدك!!

• عامل شاب يرمى صديقه •

لأننى فشلت فى أن أحب رئيسنا الراحل،
أكثر من حبنى لك ،
اتهمتنى بأننى بلا قلب ،
لم تكن ثمة جدوى من الشرح ،
وهكذا بكل بساطة ..
كنستينى من طريقك مثل " العرسة "!!
لم أكن حسن الحظ مثلك
لكى يختارونى من بين مئات التلاميذ فى المدرسة
لكى أطوق رقبتك بوشاح أحمر ،
كما أنه لم يقم أبدا بزيارة مدينتنا ،

التي نشأت فيها ،
شاهدته في الأفلام فقط ،
وقرأت عنه في الصحف ،
أعرف أنه كان رجلا طيبا ،
وأنه كان يعمل ليل نهار من أجل الشعب ،
وعندما مات ، بكيته مثل أى منكم ،
إلا أنني فشلت في أن أحبه
أكثر من حبي لك ،
أعرف كيف تزهو وجنتاك عند الابتسام ،
وكيف تغيم عيناك عند الحجل ،
وكيف يتأود جسدك عند المشي ،
وكيف يشمخ أنفك عند السخرية ،
فكيف تريد أن أحبه أكثر من حبي لك ؟
ليتنا - أنا وأنت - كنا أصغر بعشرين عاما ،
أو أكبر بثمانين عاما ، -
لكى نحب بدونه !!

• كاتب يلتقى صديقه في محل سمك !

لو أنني كذبت عليك ،
فلربما كان ذلك مفيدا ،
لو كان لى لسان مDAHن ،
ولو أن سمعك ضعيف
فلربما كان ذلك مفيدا أيضا ،
بالسوء الحظ ،
كان قدرى أن أقول ،

وكان قدرك أن تسمعى أنك لن تكونى أبدا

" السيدة تاتشر " ، أو امرأة قوية ،

كما كنت تحلين دائما ،

سلطة .. وأسرة سعيدة ،

واليوم .. أنا واقف فى الصف

لكى أشتري بعض السمك

وأنت فى الصف أيضا ،

طفلك على ذراعك

لكى تشتري حصتك من السمك ،

ليس من السهل أن نحتفل بعيد الربيع جيدا ،

" لماذا لا تجدين مكانا لكى تستريح " بالنج " ؟ ،

يمكننى أن أقف مكانك فى الصف ،

وسأخبرك عندما يأتى دورك

اعطنى سلتك "

طفلك نائم بعمق ،

كان يمكن أن يكون طفلى ،

لو أننى - فقط - كنت كلبت عليك !!

• صوت من الحرس القديم !

لأننا غرقنا أكثر من مرة ،

فلن نبحر مرة أخرى ،

لأننا خدعنا أكثر من مرة ،

فلن بهتم أحد أو يعبا بوجود أى حقيقة ،

حاول أن تقنعنا

بتصور الأعمال الرائعة فى الماضى ،



عدنا بجبل من الذهب فى الأرشيف ،
قلوبنا الهمة التى أحرقتها الأحلام ،
سقطت مثل الشهب على الشاطئ ،
هى تلك الصخور التى تراها أمامك ،
والتي لانهزها الأمواج ،
أرجلنا بترت على الطاولات
التي اعتقدنا أنها خشبة المسرح
حيث كنا نرقص رقصة الولاء والطاعة ،
الآن ، نحن لانقوى على الحركة ،
سواء نحو النهر أو على اليابسة ،
ومهما قلت

فإن الألسن التى عرفت كيف تسافر ،
سوف تجيبك " نعم ياسيدى ، نحن رهن الإشارة "!

• لأنهم سوف يسكتوننى !

بمجرد أن أمتلك حرية القول ،
سيفقد لسانى قوته ،
وحيث إن قصائدى تحاول أن تكسر الجدران
التي تعزل أصوات البشر ،
فإنها تصبح مثاقيب ومطارق .
ولكنهم سوف يسكتوننى
رابطة العنق المزرقة بالنجوم حول رقبتى ،
يمكن أن تصبح كوبرا تلتف حولها ،
كيف يمكن أن أتحدث عن القهوة والزهور ؟!
• صورة هوتوغرافية من الصين !
أثناء عشائنا الأخير

قلت إنك أخرت موعد عودتك كثيرا
لأنك لم تستطع أن تغلق فمك
الصورة التى أرسلتها إلى ،
تبدو فيها سعيدا بعودتك مع زوجتك وأطفالك،
وخلفك .. تبدو الطرق الملتوية متشابهة ،
فوق جبل الراهب الصغير
حيث يخيم الهدوء
إلا أننى مازلت قلقا
بسبب تلك الابتسامة على وجهك !!
* أفكر فيك ثانية هذه الأيام !
ونحن نغادر بيوتنا للالتحاق بالجيش ،
انفجرت فى البكاء فى القطار ،
قلت : سأفتقد والدى ، فأنا لم أسافر بعيدا ،
فى حياتى هكذا "
إلا أنك قلت أيضا :
" من واجب الكل أن يدافعوا عن الوطن " ،
وقلت إنك ستقاتل المراجعين الروس حتى النهاية ،
أما أنا ، فأطرقت ، ولم أبك ،
ولكن دموع أسمى كانت تصارع الريح الباردة ،
لكى تعطل القطار المتجه نحو الشمال .

وعلى أرض الشمال ،
ضاعت آثار أقدامنا فى الثلوج
لكى تحلل طبقات الجليد

لم يكن علينا أن نرتدى قبعات الفراء
ونحن نحرس الحدود
ونسقى جيادنا من الينابيع .

**

وفى النهاية .. خلخل المطر التربة السوداء
وتفتحت الزهور على منحدرات الجبال،
لم تكن الغابات تفهم الحرب ،
ولم تكن الجبال ولا الأنهار تفهم الحرب،
ولكننا كنا ننام كل ليلة
ونحن نرتدى الزي العسكري كاملا،
كنا دائما مستعدين للقتال.

**

الديابات التي كانت تقوم بدور العدو
كانت تنطلق فى الوادى
وانهال عليها مطر من القنابل الخشبية وطلقات المطاط،
كان كل شئ زائفا
ومع ذلك كنا نقوم به بجدية وصرامة،
لماذا اخترت أنت تلك الديابة
ذات المدفع الدوار مثل منجل هائل،
لماذا اخترتها لتضع عبوة ناسفة فوق ظهرها،
لقد أرقدتك على الأرض
ليمر جزارها على أطرافك ،
حملناك إلى أسفل التل،
وانشال دمك جدولا صغيرا ،

كان يتدفق فى اتجاه " الأمور " ،

السقوف بيضاء

الجدران بيضاء

المرضات بيضاوات

وحدها كانت عيناك سوداوان

تنزلقان ببطء

اصطدمت أبصارنا وكنت تحدق فى فى صمت ،

هل تستطيع أن تتكلم ؟

هل تسمع مايقوله الآخرون ؟

كنت تتحرك فى سريرك فى ببطء مثل سلحفاة مروعة ،

وعندما أبصرت ظهرك المعوج

كنت أودع عهدا ..

هل مازلت حيا ..

أنت كلب صغير منبوذ ..

تعوى دائما على أبواب ضميرى

وهذه الليلة ، فى هذا الصمت الطويل ،

أفكر فىك ثانية

• كلماتنا •

رغم أنك كنت أقوى الأولاد فى الحى ،

إلا أنك لم تقو على هزيمة أى منا ،

وعندما كنا نتشاجر معك كنا نقول :

" أبوك إقطاعى .. وأنت ابن إقطاعى "

وأحيانا .. كنا نقلد صوت أبيك
وهو يردد عندما كانوا يجرسونه في العلن :
" اسمى لى باو .. كنت إقطاعيا قبل التحرير ،
وكنت أستغل الأجراء والمزارعين الفقراء ،
أنا مذنب .. وأستحق الموت مائة مرة " .
حينذاك ، كنت تسحب قبضتيك القويتين ،
وتهرب إلى البيت
وأنت تسب وتلعن وتبكي مثل القط البرى ،
كنت تتشاجر بيديك فقط
نحن كنا نتشاجر بأيدينا وكلماتنا ،
كنا نتشاجر ونتشاجر ونتشاجر .
إلى أن كبرنا عنك وعن أنفسنا ،
حتى أرسلوك وأرسلونا إلى القرية نفسها
لكي نعمل معا في الحقول
ونتقاسم التميغ والشراب ليلا
ونسب قائد اللواء من وراء ظهره
عندما كان يقول :
" أيها البرجوازيون الصفار ،
لا بد أن تأخذوا أمر إعادة تأهيلكم بجدية "
ونحن نلعنه من وراء ظهره ،
حتى تنفد الكلمات !



مؤنس الرزاز.. وسيرته الجوانية

مؤنس الرزاز

على بن أبي طالب مثالي الأعلى

حوار- هاشم غرايبه

مؤنس الرزاز كاتب غنى عن التعريف ومبدع عصى التصنيف ، وإنسان أوسع من أن يصب في قالب .

لعله من السذاجة أن أعرف بمؤنس الرزاز ، كما أنه من الغبن لتجربته الحياتية الإبداعية أن أحصرها بمقدمة من عندي .

هو مؤنس الرزاز ، وكفى ...

أن تحاور صديقاً في أمور الدنيا وتشطح معه في شئون البلاد والعباد شرقاً وغرباً أمر يختلف عن الحوار المعد للنشر.

يحدث أن تحاور صديقك في أمور شتى ، اليومي والمعاشي والمتخيل والآتى بعفوية ومزاج رائق ، ولكن الحديث بحضور آلة التسجيل وسلطة النشر، فلا مناص من شيء من التكلف.

بين هذا وذاك ، بين الانفتاح العفوى وبين اللغة المحسوبة ، بين مايقال بين الأصدقاء

وبين ما ينشر للناس ، سار هذا الحوار .

كان هذا الصباح ملكاً لشمس آذار وهى تسطع من النافذة الجنوبية فى بيت مؤنس الرزاز فى منطقة اللوييدة (هو يشعر أن اللوييدة كلها بيته) .

حلوى العبد مازالت تحتل طاولة الوسط ، ومؤنس يبدو نشيطاً ، حليقاً ، مهنماً ، ... ليس استعداداً لهذا الحوار المفاجئ ، ولكن ليدارى ما أسماه (أنقلونزا نفسية) يمر بها .

ألا يحدث أن نضفى على مظهرنا الخارجى مسحة من الأناقة والترتيب لنخفى فوضى المشاعر وشطحات الروح وتعب الجسد ؟! أليس ما يفعله مؤنس بالنص الأدبى شبيه بذلك ، إذ يحيل الشظايا والفسيفساء إلى نسق جميل يخفى خلفه الزلازل والبراكين وعذابات الروح ؟

مؤنس يبدو ألقاً هذا الصباح ومقبلاً على التواصل الاجتماعى ، بعد يوم كامل من اعتزال غير مبرر (لدى الآخرين طبعاً) لنشاطات عيد الأضحى المبارك الذى كان بالأمس .

الشمس تعزز حضورها فى الصالون ، وهو يزداد بهاء وتدققا فى تبرير اعتزاله للعبد .. وحين أخرجت قلبى وأوراقى ومسجلى ، ضحك تلك الضحكة التى نفهمها (نحن أصدقاؤه " عصابة الوردية الدامية ") ..

تلك الابتسامة التى تعنى التسليم بالأمر الواقع ، وقبول الدخول فى جو ما دون الانخراط الكامل به ، فللمخيلة انشغالاتها الأخرى ، وهذا يشعر بأنك تسرق من وقته أو تحد من حريته ، ولكن بطيب خاطر ورضى منه ، ف (لاشئ يستطيع أن يختلس من مزاجى الخاص إلا أصدقائى) ! قال مؤنس : الشمس جميلة هذا الصباح أليس كذلك ؟

قلت : الكون جميل والربيع مدهش بألوانه .. وكنت سأستطرد واصفا الطريق من حوارة إلى عمان لولا ابتسامة التقشف التى ظهرت على شفته وهو يتناول فنجان القهوة الذى أمامه ، فبدأت هجومي :

- كثيراً ما تردد : (يادنيا غرى غبرى) هل غررت بك الدنيا ، أم غررت بك هذه المقولة فحرمتك من متع الدنيا ؟!

مؤنس : هذه مقولة لسينا على بن أبى طالب ، وهو مثالى الأعلى ، فهو زاهد فى غنائم الدنيا من جهة ، لكنه مناضل فى سبيل الحياة . ولو كان علياً كرم الله وجهه لا يفرق بين الحياة الفضلى من حيث هى موقف ورسالة وبين زخرف الدنيا العابر والزائل لقرر الاعتكاف فى زاوية من الصحراء ، واكتفى بالشكل الظاهر للتصوف . لكنه اختار الحياة واختلف عن الناس بطريقة العيش .

- بين مثلك الأعلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وبين تجربتك الشخصية .. كونك ابن رجل ترك بصمته على الفكر القومى المعاصر وعلى السياسة العربية عموما ، أقصد والدك الدكتور منيف الرزاز ، كيف ترى نفسك بينهما ؟

مؤنس : قد تستغرب كيف كان منيف الرزاز ينظر إلى الدنيا والحياة ، ولم يكن منيف الرزاز يحتقر الدنيا ، وإنما كان ينظر إليها كموضوع صالح للفكاهة بقدر ما كان جاداً فى مواقفه من الحياة ومناضلاً عنيدا فى سبيل الأهداف التى يؤمن بها . وإذا سألته ماهو موقفك من حياة ؟ كان يقول : الحياة وقفة عز . أما إذا سألته عن الدنيا فكان يكركر ضاحكا ، وكأنه بهذه الكركرة يلخص موقفا كاملاً وفلسفياً من الدنيا وتقاطعات زحرفها ونشازها ، فيقول :

‘الحياة تستحق العناية أما الدنيا فـ .. طز

وهنا أنا الذى أقسم هذه القسمة وهى أقرب ماتكون إلى الدقة.

- السخرية المرة ، الكاريكاتير الضاحك ، السخرية السوداء ، السخرية بأشكالها هى ثيمة أساسية فى كتاباتك. ثمة موقفى فلسفى ونفسى (يلمسه الناقد والقارئ فى رواياتك وفى مقالك اليومى أيضاً) كامن خلف السخرية أو تكمن السخرية بين سطوره ، وللناس فيما يقرأون مذاهب وتأويلات ، ولكن تنظر أنت إلى السخرية فى أعمالك ؟

(يأخذ مؤنس نفسا عميقا ويضحك .. الفانتازيا التى نعيشها فى الواقع .. لو نعيشها بجد " ؟!) ثم ينفث دخان سيجارته ويقول :

مؤنس: السخرية السوداء خير سلاح لمواجهة فجائع الواقع المعاش ، الخاسر الذى يضحك من جراحه منتصر فى حقيقة الأمر ، والمهزوم الذى يضحك من هزائمه هو الرابع الأكبر .

(ضحك من الاثنين) ، وأضاف :

اللطم وشق الجيوب يجعل خصومك يشتمون بك ، والرجولة تقتضى " أن لا نحط واطياً " (صمت)

أحيانا أسخر من نفسى ، وأحيانا من رفاقى ، وأحيانا من أمتى ،

(....)

أحيانا أسخر من موقف ، أو من فهم لموقف ...

- لا أعرف علياً كرم الله وجهه ساخراً ، فهل ورثت السخرية من منيف الرزاز مثلاً ؟

مؤنس : أعتقد ، فقد كان مشهوراً بين أصحابه ورفاقه وخصومه بلسانه السليط وسخريته اللاذعة وروح المرحه ، وهنا ثمة فرق بين سخريتى وسخرية منيف الرزاز ، سخريته أقرب

إلى الكاريكاتير اللاذع المرح ، أما سخريتي فمضمرة ، سخرية مرة وسوداء ، سخريته بيضاء ، وسخريتي سوداء ربما ، منيف الرزاز لم يعرف الكآبة ، بينما عرفتني الكآبة مبكرا في سنى شبابي الأولى .

نهض مؤنس وبذل الأمر ما ، وقفت أمام رسوماته المنتشرة في الصالون ، رحت أتاملها .. عاد يحمل صينية الشاي ، قال : الجو حار ، تنبهت أن الشمس توغلت كثيرا في الصالون ، أسدل الستارة .. أحسست أن الجو صار أقرب إلى البوح منه إلى المواضيع العامة . قلت : نؤجل الحديث ؟ قال .. لا .. تابع)

- في مفاك اليوم (٢٠٠١/٣/٦) ثمة سخرية من الكآبة ذاتها ، إذ تقول إنك حين ولدت عمداً أبوك في البحر الميت .. هل تنتظر إلى اكتئابك كمرض ، أم هو تفاعل خاص بين ظروف حياة الإنسان وكيمياء النفس ؟

مؤنس : أذكر أن والدي من حيث هو طبيب استطاع أن يرصد أول نوبات كآبتي بعد انقلاب (أعمامى الرفاق) علينا في سوريا .. هل التحول المفاجئ من السلطة إلى التخفي والترحال هو السبب ! هو البداية ؟ أم كان لدى استعداد طبيعي للتفاعل مع الكوارث تفاعلا تحكمه الكآبة ..

(شاركته الصمت ، ارتشفت الشاي على مهل ، ضحك وقال

totaler Tea نياك

ضحكت ، وواصل :

مؤنس : كما تعرف بالنسبة لي لم أكن ابن عضبية عشائرية أو طائفية كان البعث عشيرتي ، وكان رفاق والدي هم عصبيتي ولم أستوعب حكاية (أعمامى) الذين كانوا من أهل البيت اليوم كيف يصيرون أعداء شرسين في الغدا ! فحين انشقت هذه العصبة كدرت صفو والدي ولكنها طعننتني أنا الطفل آنذاك في الظهر وأصبت بشرخ عميق جدا .
(صمت) ..

علقت : التجربة المرة ! " اسم كتاب للدكتور منيف الرزاز عن حكم البعث في سوريا في الستينيات من القرن الماضي "

مؤنس : والمشكلة أن هذا السيناريو نفسه تكرر بحذافيره تقريبا في بغداد عام ١٩٧٩ ، فما كدت أشفى من ضربة الأولى حتى وجهت إلي الضربة القاضية . وهنا يدخل الخاص بالعام وتتداخل في رواياتي مأساة الأمة بمأساتي الشخصية.

(كان وجه مؤنس متكررا وهو يملأ رثتيه بنخان السجارة .) قلت

- ولكنك استطعت تحويل هذه التجربة المرة إلى فن راق عبر رواياتك التي صورت تجزيتك الحياتية والسياسية والتي كانت تجربة جيل بأكمله وأمة بماضيها وحاضرها وطموحها نحو الحياة الفضلى فكانت روايات أحياء في البحر الميت واعتراقات كاتم صوت ، ومقاهة الأعراب في ناطحات السراب ومذكرات ديناصور ، وجمعه القفارى ...

مؤنس : ربما في ذلك عزاء للقارئ ، أما بالنسبة لى ..

(صمت)

- هل قرأ النقاد هذه المرحلة في أدب مؤنس الرزان بما تستحق من إضاعة ؟

(صمت)

- هل أنت راض عما كتب عن رواياتك ؟

مؤنس : لقد غطي معظم النقاد الجانب السياسى تغطية جيدة وهو الجانب الأسهل ، لكنهم فى الغالب الأم قصروا فى رؤية تأثير الأحداث السياسية على سيكولوجية أبطالى بشكل عام ، أجمل من كتب عن أعمالى هو ناقد ألمانى ، أشار إلى أهمية دستويفسكى وإريك فروم فى حياتى الأدبية ، وقد ركز فى كتابته على الجانب السيكلوجى والنفسى لشخصيات رواياتى ، وهذا أنضج ماكتب عن أعمالى حتى الآن ترجم لى معظم هذا العمل ، صديقى الدكتور سليمان مخادمة ترجمة.

ربما هذا مايبقى من الأدب ، روحه الإنسانية ، فالنقاد العرب مكتوون بنار الأحداث السياسية فلم يهتموا بالبعد السيكلوجى ..

قد تستغرب ، إن قراء عرباً عاديين التقطوا البعد السيكلوجى فى أعمالى وفتنوا بالجوانب الفلسفية والنفسية لأبطال رواياتى ، حتى أن قارئة ذات ذائقة أدبية رفيعة قالت لى كيف تستطيع أن تعيش حياة عادية بينما تضج مخيلتك بهذه الشخصيات المشروخة الشبيهة بهاملت والإخوة كرامازوف؟

- وماذا كان ردك ؟

(ضحك)

مؤنس : ومن قال إننى أعيش حياة عادية !

بالمناسبة ، أريك فروم يرى أن الإنسان يعيش فى عالم محيط متحرك مليء بالمناقضات ، والكتابة تعطى توازنا ما للكاتب فى مواجهة فنتازيا الواقع . ولكن الأمور تتفاوت من شخص

آخر ، هناك كتاب أسوياء مثل نجيب محفوظ مثلاً وهناك كتاب تغلب عليهم صفة عدم التوازن ، ومن الحالات المبدعة المتطرفة في هذا السياق عرار وتيسير سبول محليا ، وعالميا فان كوخ وفرجينيا وولف ..

- لآى فئة أنت أقرب ، إلى نجيب محفوظ أم إلى فان كوخ ؟

(أطفأ مؤنس سيجارته على عجل وأجاب بحماس)

مؤنس : أنا غير متوازن ، ثمة نظرية لفرانز فانون حول المعذبين في الأرض ، هل قرأته ؟

أقصد كتاب (المعذبون في الأرض) ؟

قرأته بترجمة رديئة ومختزلة ولكنها أثرت في أكثر من كتاب طه حسين الذي بنفس الاسم .
المهم ، يرى فرانز فانون أن المستعمر يفتح الميم لايكون سويا أبدا والمستعمر بكسر الميم لايفتصب الأرض فقط ، إنما يفتصب النفس والروح والعقل ويشوه الكيان الإنساني ، وللأسف فإننا ولدنا في مرحلة مابعد الاستقلال ، حيث حكمنا في الغالب " مع وجود بعض الاستثناءات " من قبل مناضلين شوههم القمع الاستعماري ، فأنزلوا أشد العقوبات بأنفسهم و" بنا " التي أثرت على تمايكننا النفسي.

أنظر إلى الوطن العربي من الجزائر إلى لبنان إلى العراق ، ناهيك عن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يلحق الضرر النفسي والروحي والجسدي بالفلسطينيين فقط ، وإنما بآبناء الأمة العربية كلها ، وخاصة المشرق العربي .

فمن هنا أستطيع أن أقول إن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية التي مررنا بها جعلت الإنسان العربي غير متوازن ، فما بالك بالفئة الأكثر حساسية.

سم الحالة ماشئت : عدم توازن ، فصام ، ازواجية .. المهم أن ثمة خلا ما ، وعن هذا الخلل لنا أن نكتب ونبدع .

- نبهتني إلى أهمية فرانز فانون ، هل تأثرت به وهل أثرت كتابته على الأدب العربي

الحديث .

مؤنس : أعتقد أن أكثر كاتب عربي استفاد من نظريات فرانز فانون عن التشويه النفسي وعلاقة المستعمر (بفتح الميم) مع المستعمر (بكسر الميم) وهو الطيب صالح في موسم الهجرة إلى الشمال ، وقد صارحته بهذا الرأي فقال : فرانز فانون منجمي الكبير الذي أنهل منه ، لكن أحدا من النقاد لم يشر لذلك ! (ثم موجهها السؤال لي ، قال مؤنس) هل انتبهت للملحق في آخر كتاب « المعذبون في الأرض » ثمة شهادات حية وواقعية لأشخاص من

الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي ، ورمود أفعال الناس يستطيع أى روائي الاستفادة منها . سأحضر لك الكتاب بالانجليزية.

(ذهب مؤسس إحضار الكتاب ، وذهبت أنا للسلام على والدته والاطمئنان على صحتها . ثم عدنا وأنا بذهني أحضر السؤال عن أثر والدته على كتابته ولكن تصفح كتاب فرانز فانون قادنا إلى حديث آخر)

- من الملاحظ أن المرحلة الأولى من كتاباتك كان للحدث دور هام فى المنظور العام للرواية ، ومن ثم يتشعب السرد من الحدث إلى إضاعات على شخوص تنوء تحت وطأة الأحداث . أما المرحلة الثانية المتمثلة فى الشظايا والفيسفساء وقبعتان لرأس واحد ، وعصابة الورد الدامية ، وسلطان النوم ، وزرقاء اليمامة ، وحين تستيقظ الأحلام ، فمن الملاحظ أن البعد النفسى للشخوص والبعد الفلسفى للمقص صارا أكثر حضورا ، وفلسفة السخرية إن صح التعبير ، صارت البؤرة المركزية للعمل ، والشخصيات اللثائية صارت أكثر حضورا وفاعلية ، وهذا ما أهمله النقاد تقريبا ، أو بعبارة أخرى الكم الذى يكتب عن المرحلة الأولى كان أكبر.

مؤسس : أعتقد أن المرحلة الثانية تحتاج إلى جهد مكثف فى دراسات نفسية للشخصية العربية ، وفى هذا المجال ثمة خطوط حمراء ومحرمات وتابوهات بالإضافة إلى أن الجهد النقدى لابد أن يكون مضاعفا هنا فمن السهل فى المرحلة الأولى الربط بين تجربتى وتجربة حزب البعث.

يقول الناقد : هذا الرجل يقول عن تجربة حزب البعث وهو شاهد على هذه التجربة فهو ابن منيف الرزاز الأمين العام تارة والأمين العام المساعد تارة أخرى ، الحاكم فى سوريا والقائد المعارض فى الأردن ، والحاكم فى العراق ويستطيع الدارس أن يمسك بزمام المرحلة التاريخية ويتفرع إلى فرضيات أخرى يجد صداها فى نصوص المرحلة الأولى . أما فى المرحلة الثانية فالنقد فى حاجة إلى التوزيل والفوص فى الزمزم وإلى الدخول فى بعض الدراسات الميثولوجية ولأن معظم النقاد العرب باتوا يتعاضون من كتابة المقالة أو الدراسات القصيرة فقد أخذوا يستسهلون الكتابة التى لا تستنزف الكثير من الجهد وهذا أمر طبيعى حين تعيش فى عالم يدفع لك مقابل الدراسة المنشورة فى الصحف والمجلات ويقبض منك الناشر مقابل كتاب فكرى نقدى كبير!

- عودة إلى دستويفسكى وأريك فروم وفرانز فانون ، هل مازلت تعتقد أن المؤثرات الخارجية (القمع تحديدا) تأخذ طريقها للفعل فى الواقع والتأثير على الشخوص أفرادا

وجتماعات أما أن شيوع الديمقراطية إلى حد ما وشعارات المجتمع المدني الحديث حد من هذه الظاهرة ؟

مؤنس : (شوف) فى المرحلة الأولى بعد الاستقلال كانت الأضرار تلحق بالسياسيين المحترفين سواء كانوا بالمعارضة أو بالسلطة ، لكن فى أواسط السبعينيات وحتى نهاية القرن المنصرم صار الإنسان العادى ، الإنسان العربى المحايد الذى يسعى إلى قوت يومه فقط والذى ليس له علاقة بالسياسة ، صار ضحية رغم أنه ، ففى لبنان قامت حرب أهلية استمرت ١٧ سنة ، لم تترك صغيرا ولا كبيرا ولا امرأة ولا طفلا ، مهما كانت طائفته ، معتقده ، أو حزبه ، ومهما حاول أن يبتعد عن حلبة الصراع ، هذه الحرب تركت أثارا نفسية عميقة عند جيل بأكمله . ثمة جيل كبر فى الحرب . وخذ مثلا الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع منذ الثمانينيات وهو يقوم بانتفاضة تلو الأخرى ، والذين يقتلون مواطنين عاديين ، طفل ذهب لشراء لعبة ، وآخر عائد من عند الحلاق ، وامرأة تنشر غسيل أمام بيتها ، ورجل ينام فى فراشه .. إلخ ، ثم أنظر الحصار على الشعب العراقى وأثره على الناس ، واحتلال الكويت ، وحصار ليبيا والسودان ، ومجازر الجزائر .. هذه أحداث تترك أثرها على العرب أينما كانوا وعلى كل شخص على حدة ، وكلها مؤشرات على اتساع نطاق التشويه . لم يعد التشويه الجسدى والقتل والاعتقال والضرب هو السبب المباشر للتشويه ، ولم يعد التشويه النفسى مقتصرًا على اللاعين فى الطبعة السياسية ، وإنما صار ثقل الواقع وثقل القطب الواحد وضغوط العولة تنال الأفراد والزوايا المعتمة والمتناقضة فى ذات الفرد الواحد .

- هل الأدب هو الحل ؟

مؤنس : الفن وجد للصدق مع الذات ومع تشخيص الحالة وهذا جزء من استقصاء الجوانب المعتمة والمترفة والخفية فى النفس البشرية فى المجتمعات الإنسانية التى على الأدب والفن معالجتها ، هذا المواطن الذى يريد " سلته بلا عنب " صار هدفا وهو لا يتوقع ذلك ، لم يكن المواطن العراقى البسيط فى عمله أو فى حقله أو فى قاربه يتوقع أن تحل به كل هذه المعاناة ، لقد اتسع تأثير المعاناة أفقيا وعموديا ومحوريا .. هذا يذكرنى بمقولة لستالين .. (تناول مؤنس ابريق الشاى وقال هلا سخنه ؟) ضحكنا وقلت ..

- ما علاقة ستالين ؟

مؤنس : يقول ستالين " الجرح النفسى والغضب الصريح عند عابر السبيل الذى لا علاقة له بالمظاهرة التى يقمها القوازي ، أعمق وأكثر أثرا من إحساس البلشفي لأن البلشفي خرج

للشارع وفي حسابه أن يجمع ، هكذا يبدأ الإحساس العام بالغضب " .
(استراحة وقهوة جديدة ، واعتذار من مؤنس لأنه لن يرافقني لنعائيد على الدكتور خالد الكركي : قل له معي إنفلوانزا نفسية وهو يفهمني) .

- نحن القريبون منك تابعنا مقاطع من نصك الجديد الذي تكتبه الآن ، وأنا ألس بوابر مرحلة ثالثة جديدة في كتاباتك .. هل تود أن نتحدث عن هذا المشروع ؟
مؤنس : أشعر منذ فترة " كما تعرف " ببدء داخلي يقول لي : اكتب سيرة جوانية ، وأنت تعلم أن السيرة الذاتية بمعنى الاعترافات ، غير موجودة في الأدب العربي المعاصر ، ربما باستثناء حالة محمد شكري من المغرب .

كان هذا النداء مني أن أفصح الحجاب الذي يجلل حقيقة حياتنا في الوطن العربي .
هذا مشروع يتطلب جرأة عالية ، وشجاعة أدبية لاتعرف التردد ، وصدقا مع الذات أولا ، لهذا ولربما لأول مرة : سوف أكتب عن بور النساء مثلا في حياتي ، وكيف كان من حقي أن أكشف حقائق تتعلق بي شخصيا ، فليس من حقي أن أكشف الحقائق التي تتعلق بالطرف الآخر ، لذا فإن لغة المشروع الجديد ، أقرب إلى لغة النص منها إلى لغة الرواية .
هو ليس رواية .. ولكن ، ولنرى ماذا سيكون عليه الكتاب حين يكتمل المشروع
- هل نستطيع وصفه ، نص من طرف واحد ، راو واحد ، ... مركز واحد ..

مؤنس : أشعر أن النص الذي بين يدي ليس لغة فقط ، ولا شخصيات وأحداث .. إنه حضور مميز للحياة الجوانية بخصبيها وتلعثمها .. إنه كما المرأة ، ليس جسدا أو روحا فقط بل حضور فاعل مدهش يسير على قدمين نحو غوايته الخاصة .. الحب !
قاطعته

- الحب من طرف واحد طبعاً

(ضحكنا)

مؤنس : (شوف) الحب بين طرفين لا يكون متساويا أبدا ، ونحن لا نتحدث عن ميزان البقال ، .. نتكلم عن بشر أحياء لهم نفوس عصية على القياس والتقويم، مطوعة للتخمين والتخيل ، لقد وصف العرب الحب بعشرات الأسماء تتدرج من المودة إلى الهيام .. (صمت)
صار الطقس جميلا ، هل نفتح النافذة : الشمس بدأت تتسحب
نعود إلى موضوع الحب ، أمنت عبر رحلتي الطويلة بأن الحب بين طرفين موجود ولكنه لا يمكن أن يكون متساويا .

علقت : " وإن تعدلوا "

قال مؤنس بنبرة توكيد .

- لايمكن أن تكون علاقة بين أى طرفين متساوية تماما ، هذا وهم ، انظر إلى التدرج فى علاقات الحب ابتداء من الحب من طرف واحد وانتهاء بالحب العذرى ماذا ترى؟ .. قد يوجد الهيام مقابل العشق وقد يوجد الوله عند هذا والتدله عند الطرف الآخر ، فكل درجات زلازل الحب موجودة على مقياس (ريختر) ولكن لكل عاشقين مقياسهما الخاص ولكل طرف (ربحته) ! (ضحك)

بالنسبة لمقياس ريختر عندى فانه يرتاج للحب من طرف واحد .. سواء كنت عاشقا أو معشوقاً !

- طبعاً ، الأفضل أن تكون معشوقاً .

مؤنس : ياسيدى .. مش فارقة كثير . بذك قهوة كمان ؟

- ألا تعتقد أنك تورطت بندانك للمرأة كى تكون حبيبته من طرف واحد ، وهتافك فى وجه الدنيا : غرى غبرى .

(ضحك وكلام خارج التسجيل)

مؤنس : هذا عن المرأة المحبة ، ماذا عن الدنيا الغرورة ، المرأة والدنيا صنوان .. (ضحك)
طبعاً من وجهة نظر الذكورة ، .. أحياناً تكون المرأة هى الحياة ..

- تقصد الدنيا بمعنى العيش ، والحياة بمعنى استمرارية تدفق العطاء ، والتوحد بمعنى الوجود ؟

(صمت)

مؤنس : تعرف أننى مررت بتجربة تصوف حقيقية .. إنها من أجمل التجارب التى مررت بها فى حياتى ، لكن التصوف الكامل بحاجة إلى الجهاد الأكبر (مجاهدة النفس) وأنا لم أستطع مع درجاته العليا صبراً ، فأنا رجل غير صبور (وبصلتى محروقة) .. ولذلك عندما عدت من رحلة التصوف إلى زخرف الدنيا أطلبه ، وإلى متطلبات النفس الغرورة ، بدا لى أن الأقدار صدقت زهدى أو أن زخرف الدنيا استسلم لجفوتى ، فأمعنت فى حرمانى أو أمعنت فى معاقبة نفسى حتى من الحد الأدنى لشهواتى المتواضعة .

- الشهوات بحاجة لهمة يا صديقى وأنت أعلنت نفسك شيخ التبايل ! لاتلم الأقدار .

(بابتسامة مضينة تابع مؤنس حديثه)

يعنى ليس إلى درجة الجفاء والجفاف .

(صمت)

(مؤنس مبتسما ونظراته غائمة)

أقر واعترف أن تجربتي في الحب علمتني أن الحب والحرية ضدان ، وكل واحد منا حر في تجربته ، بمعنى أنى غير محتاج لدروس ومحاضرات عن تكامل الحب والحرية . الحب بين طرفين يحتاج إلى تنازلات من الطرفين والتزامات ، وتبعات ، وقيود ومسئوليات . وهذا يقودك إلى فقدان جزء كبير من حريتك الشخصية ، لذلك يميل مزاجى المتقلب إلى النظر إلى الحب وكأنه يليق بالتوازي مع الحرية ويستحق بعض التنازلات ، وأحيانا يميل مزاجى إلى العكس ، إلى تقديس الحرية ، فأرى أن الحرية أعظم من الحب ، وبما أنه لاغنى عن الحب ألجأ إلى الحب من طرف واحد ، فأعفى حبيبتي من أى التزام حيال مشاعري الخاصة . وإذا حدث العكس أى أن تحبني هى فأنتى أعفى نفسى من أى التزام حيال مشاعرها نحوى .

يا أخى المواعيد والتحضيرات والارباكات .. قصة أنا فى غنى عنها .

- وماذا عن الأصدقاء .. أليست الصداقة مكلفة أيضا ؟

مؤنس : الحق ، أن الأقدار كانت كريمة معى على صعيد الأصدقاء ، وسأبوح لك بشيء

بمناسبة هذا الحديث :

لولا البور الذى يلعبه أصدقائى كصمام أمان لأمزجتى الحادة والمتقلبة . وتقلبهم لى فى كل حالاتى وصراعاتى الجوانية ، لما كان لمؤنس الرزان أى وجود اليوم ، ولما كان هذا الحوار الجميل أن يكون .

رحلة أخيرة

سعود قبيلات

عندما رأيت جثمانه يخرج من المشرحة محمولاً على الأكتاف ، مشيت مبتعداً عن المكان ، لكنني لم أستطع منع نفسي من الالتفات إلى الوراء قليلاً دون تركيز ، وعندئذ بدا لي الجسد المحمول أقل وزناً وطولاً مما كان عليه في الحياة ، وكان ذلك مخالفاً لفكرة حملتها منذ طفولتي في القرية ، حيث كنت أسمع أن الناس يزدانون طولاً بعد موتهم ، وشعرت بالحزن والأسف لأنني لم أحدثه عن هذه الفكرة وإن أتمكن من ذلك بعد . .

وضعوا الجثمان في سيارة نقل الموتى وأغلقوا بابها عليه ، أما هو ، فقد صعد إلى جانبي في سيارتي ، ورحنا نتبع السيارة التي تقل جثمانه وهي تغادر مستشفى الجامعة الأردنية وتنحرف باتجاه شارع الصحافة.

رن هاتفى المحمول ، فإذا هاشم على الطرف الآخر يسأل : أين وصلتكم ؟

قلت : عند جسر الجامعة ، أين أنت ؟

قال : عند مسجد الجامعة ، ساكون وراكم بعد قليل .

كان قادماً من إربد.

تجاوزنا جسر الجامعة ونحن ، أعنى مؤنس وأنا - صامتين ، ومن حين لحين كنا ننظر إلى الوراء فنرى موكب السيارات الطويل يتبعنا ، ثم نعود للنظر إلى الأمام من دون تعليق ، وفجأة راح مؤنس يستذكر بعض المقاطع من مخطوطة (الاعترافات) كما كتب عنه وعن نفسه :

" آخر العنقود ، هذا الكتاب ، آخر المحطات وآخر من انتحر دون تخطيط ولا موقف ولا نريعة "

" منفسو الخارجي - بيان الخارجين "

" أيها الخارجون عن قانون الجاذبية أقبلو عقولكم واحتفظوا بخيالاتكم .. تعالوا نؤسس شلة في الخواء وللخواء ، تعالوا نقطع أصابعنا عندما تقبل المرأة الزنيقة أو السيدة الباذخة أو باء أو سين أو لبنى أو المرأة القنبلة أو مارغريت .. أيها الخارجون على قبائلكم تعالوا نخرج من جلودنا .. خارجون .. خارجون .. خارجون .. وياطنبيون أيضاً !

تعالوا ننظروا بلا مطالب ولا شعارات ولا أهداف ولا هتافات ، دعونا نخرج في مسيرة كبرى عن مسار الكواكب ، نقلع حين يهبط الآخرون . ونحط حيث يخلق غيرنا ، تعالوا نباع بالكواتين فيلسوف فوضانا ، فلنرفض المؤسسات والنواثر والمراجع والطوايع ومدير قسم اللوازم بما نحن جماعة لانتزيمها الأشياء " كنت أستمع إليه وأنا أركز نظري على السيارة التي تقل جثمانه كي لاتضيع منى في زحمة السبز ، وماليث أن انتقل إلى تلاوة فقرات من غزلياته بأزرا " آلهة الموت في الحضارة الرزائية التي سادت ويات في بادية الشام ، بحسب قوله "

" أزرا ..

مأخوذ بك ، مأخوذ بقميصك الدموي ..

بدهاليزك المكيفة الهواء .

ثمة جحيم مالح وفردوس رمادي على الأرض ، والعلاقة بينهما جدلية ، أنت ، يا أزرا ، سكرة خضراء ..

أزرا .. من غيرك يقبل بي كما أنا .. بكامل عيوي الفاضحة بلا قيد أو شرط

عيوي المشعشعة بشاعة

عيوي الكافرة المكفهرة المعشوشبة أدغالاً وعمات..

أريد يا أزرا ملحاً سرياً تحت الأرض كي أمارس موتى بلا طموح ، أرغب في قلعة تحت الأرض بعدما انهارت قلعتي الجوانية الحصينة ، حين كبا حصان طروادة .

قلعة ضيقة خائفة سرية تحت الأرض أنظم بها حركة موتى المقاوم ، من تحت .

سوف أقوم .

الخط البياني ينحدر .. نحو ماذا ؟

نحو الحضيض طبعاً .

القرع مريح ، يندق على ظل اليأس وطمأنة الاستسلام .

هل أنا مسجى بلا مقاومة .. وأزرا تغطي بي بطانية من القبلات ، على قشعيريتي "

كانت الجنائز قد انحرفت عند نوار عبد الناصر باتجاه النوار الثالث ، في هذا الاثناء كنت

أتذكر دعواته الملحة لأزرا طوال السنتين الماضيتين لتأتى سريعاً وتأخذه :
" أزرا

الدنيا امتصت رحيق مانتبقى من قوتي ، اقبضى على روحى وهى فى ذروة تألقها ، اقبضى عليها وهى مازال بطة الحبة .. لاتمهليها فينهبها جرد العفن .

أزرا .. تعالى ، لاتردى على سميحة ، لاتتخدعى بهاشم وسعود ويوسف ، اقطفنى من العدم الشاحب وخذنى إلى الغيب المتفتح.

اننى خطأ شائع ، مثل الحلاج وفان كوخ ، وبناء على ماتقدم نوبيني بدروس الصرف نحو المجازير التى ابتلعت فرج الله الطلو .. وصرفته نهائياً مادام خطأ فاحشاً فى عيون عبد الحميد السراج ، عميد الصرف السيويهي.

أزرا .. اننى خطأ فاحش فاشطيينى ، صححيتى بحرية ممحاتك ، أعوى عواء نذب مثخن ، أناديك : أزرا تعالى ، لقد بلغت أرذل العمر بعد نصف قرن فقط من الطراد على هذه الأرض اللياب المسيجة بأفق من غبار فقدان السوية وعوسج العصاب ، والدنّب المثخن بالمرارة النازفة السوداء .. خطر.

تعالى .. أمرك أمر الضحية للجلاد ، أمر الأرض للشمسي التى تدور حولها بالرغم من أنفها .. عاشت الحرية ماجدة عربية خالدة !!!

أزرا لا أتمنى سوى الموت ، اخطفنى خطفاً سريعاً لنثيماً ، اقبضى على روحى غدراً ، كوني طعنة مباغثة غائرة فى الظهر ياهبيبتى ، عند ذاك المنعطف ، حيث لا أتوقع مديتك الساطعة سراً.

تعالى العبي معى الورق ، واتغازل قبلك اليبسرى قدمى اليمنى تحت الطاولة ، بينما الشركاء من اللاعبين يعضون فى غيهم الأبله ، وهناك فى ظل سرير اللعب المشترك وفراش التواطىء الغرائزى حيث فصيح المرأة يوقد لهات الرجل اطعنيتى " كان هناك ثمة مصور تليفزيونى يظهر من حين لحين على الرصيف موجهاً كاميرته إلى السيارات المنتظمة فى الجنازة ، وعندما هبطنا باتجاه رأس العين ، كان المصور قد انبطح أرضاً وراح يصور السيارات من الأسفل ، فافهمته بتعابير وجهى إننى مثله مندهش من الأمر ولا أملك جواباً ، عندئذ عاد إلى استذكار مقاطع أخرى من اعترافاته " عبور هذه الرحلة من المهد إلى الحد مجرد عبور بأشغال أحزان تنفتح فى الربيع المقبل ابتسامات وقوافل ، عبور ، مجرد عبور له نكهة عبور بسيط ملتبس ، عبور على جسور بين العدم والخلود "

وراح يمنح شاربيه براحتة كشائه كلما أخذه الشroud أو انهمك فى التفكير ، وكان شارباه الطويلان قد تعرضا لمحاولة تشذيب بيد غير محترفة ، حيث ببت بعض الشعيرات أطول من سواها ، وكان على هذه الحال عندما رأيته لأخر مرة قبل غيابه الأبدى بنصف ساعة ، وفكرت

بأن ملامح الطفل قد أصبحت أكثر وضوحاً في وجهه بعد أن أصبح شارباه رقيقين ، ولم أعرف لماذا تحدث كثيراً حينها واستذكر العديد من الأصدقاء ، وبعضهم لم يكن رآه أو تذكره منذ مدة طويلة ، وفجأة انتبهت إلى صوته يتلو مقاطع أخرى من الاعترافات ، وكنا آنذاك قد بدأنا نصعد باتجاه أم الحيران :

" ما أروع الحياة ، الحياة احساس ببناء حرية مطلقة ، الدنيا تتحكم بها قاعدة الضرورة ، الحياة نطاق الخيارات ، الدنيا مواقع الحتم ، الحياة خروج عن القاعدة وعليها ، الدنيا انضباط المضطر أو المذعن "

وصلت الجنازة أم الحيران ، وبينما كانت تقترب من المقبرة ، راح مؤنس يتلو المقطع التالي " حيواتنا كالسحب تتشكل في دار قاضي القضاة لتتحل وتنتقشع عند الأطباء ، بين سلطة القاضى الصارم وامتيازات الطبيب المهرج ، دعونى أمر بأبهة العاطلين عن العمل ، أقصد المتسكعين النبلاء ، والمشردين جراء موقف فلسفى ، أقصد بنى الخيبة المبهجة "

وقفت سيارة نقل الموتى أمام مسجد المقبرة ، وأنزل الجثمان منها ، وأدخله المشيعون المسجد للصلاة عليه ، بينما وقفنا ، مؤنس ويوسف الذى تزجل من سيارة أخرى ، وأنا على رصيف الشارع المار من أمام الجامع نثرثر على سبيل تزجية الوقت .

وعندما طال الأمر قليلاً اقترح مؤنس أن ندخل المقبرة بانتظار دخول الجثمان ، فما أن هممنا بالدخول حتى عاد إلى تلاوة اعترافاته " فى رحم أزرا سلامى ، تنتظرني سكينتى المرتجاة ، فى أحشاء أزرا سلامى الوحيد ونهاية مسلسل الزلزال الدرامى "

وقال يوسف أنه قلق من وقع الخبر على سميحة عندما تتلقاه الآن عبر الانترنت وهى فى أمريكا.

أبديت موافقتى على كلامه بهزة من رأسى ، غير أن مؤنساً نظر إلينا والدهشة بادية على وجهه ، وقال : كنت أتخيل بأننى كنت فى منتهى الوضوح عندما رحلت أقرأ لكم خلال السنتين مقاطع من اعترافاتى أغازل فيها ألهة الموت وأطلبها بالحاح.

قلت : أقول لك صراحة : كنت أعتقد بأن هذا لم يكن أكثر من شكل من أشكال الاحتجاج على الأحوال المتردية والأحلام المتكسرة والطموحات المتلاشية ، حسب قال مستغرباً : أهذا ماكنت تظنه حقاً ؟؟

قلت : نعم ، فلم أكن لأصدق أن أحداً يحب الموت ، بل ويعشقه إلى هذا الحد ، كما أتنى كنت ألحظ نوعاً من التحفظ في نبرات صوتك وأنت تقرأ هذه الاعترافات.

قال وعلامات الاستغراب لاتزال بادية عليه : أتريد أن تعرف ماحقيقة ذلك بالضبط ؟

قلت : نعم .

قال : سأتلو لك إذاً مقطعاً من اعترافاتى.

وبيئما كنت أنظر إليه مصغياً ، قال :
" أغنى لك يا أوزرا بصوتى المنكر وإصغاء أذنى الموسيقىة .

أوزرا .. لمن أروح ؟
أحبك حب مرتاح ترتعد فرائصه خجلاً لا حوجاً ، أخجل من أصدقائى وأحبائى الذين
يشدوننى من ياقة معطفى بعيداً عنك .
وصت قليلاً ، ثم عاد فكرر :

" أخجل من أصدقائى وأحبائى الذين يشدوننى من ياقة معطفى بعيداً عنك "
وعندئذ شعرت بالأسى والأسف العميق لأننى لم أفهم الأمر على النحو الصحيح فى الوقت
نفسه .

وراح هو يواصل تلاوة اعترافاته :
" إننى انتفض خوفاً ، لاثورة أو تمرداً ، حبك يا أوزرا ، مريع ومروع ، لكنه يتميز بطعم
الرهبة ، ولون الجراة وملمس الحذر ، ورائحة الأمومة "
سرنا عبر ساحة واسعة داخل المقبرة ، متجهين إلى سور داخلى واطى ، عندما وصلناه
وقفنا عنده وانكأنا عليه ، ورحنا نراقب الآخرين من المشيعين الذين أخذوا يتكاثرون فى
الساحة .

قال يوسف : كان الناس فى زمن آخر يسمون هذه المقبرة مقبرة الشهداء ، أما الآن فهى
مقبرة أم الحيران .

لم يعلق أى منا على ملحوظته ، ولم يصف هو أى كلمة أخرى ، وفجأة تذكرت باندھاش
مقطعاً من الاعترافات يقول :

" أعرف أن محطتى الأخيرة دانية ، بوسعى أن أرسم بارود فرساتى وعباءات سوداوات
قيهن نساء ، بوسعى أن أرسم المشهد تشكيمياً !!!
وبدا لى كما لو أننى أقرأه لأول مرة ، وعندئذ نظرت إلى مؤنس نظرة مليئة بالمعانى ولم أقل
شيئاً .

ومالبت الجثمان أن دخل من الباب الخلفى للجامع محملاً على الأكف والاكتاف فاحتشد
المشيعون خلفه ، ورحنا نحن نمشى خلفهم باتجاه المثوى الأخير ونحن صامتون ، وفى هذه
الأناء كنت أتذكر كيف أننا (هو وأنا وأصدقاء آخرون) قد مشينا فى الممر نفسه قبل أقل من
عقدين من الزمن ، مشيعين جثمان والده الدكتور منيف الرزاز إلى المثوى نفسه .
بعد بضعة عشرات من الأمتار توقف الحشد فتوقفنا ، وتولت الأكف المرفوعة إنخال
الجثمان إلى حجرة ضيقة ، فشعرت بحزن مضاعف ولم أتمكن من حبس دموعى ، فى هذه
الأناء ظهر هاشم بالقرب منى ، ألقى تحية مقتضبة ووقف صامتاً يراقب المشهد .

ومال يوسف علينا وقال هامساً : أئى مقابر هذه التى تتخذها بعض العائلات فى العاصمة مستقراً أخيراً لموتها ؟! مقابر القرى أفضل بكثير ، وهى فى رأى أليق بمبدع كبير عاشق للحرية من زنازين الموتى هذه ، هناك يتصل القبر مباشرة بالهواء الطلق والفضاء المفتوح ، ويلتحم الجثمان مباشرة بالتراب ، فتتاح له الفرصة الكاملة للعودة بصورة سليمة إلى مكوناته الطبيعية.

أحنى هاشم رأسه موافقاً ، كذلك فعلت أنا .
وفجأة انتبهنا على صوت مؤنس يتأو مقطعاً غريباً من اعترافاته :
" البود لئيد طريف ، ثمة بودة تكائدى ، تثير غيظى ، تقول وهى تدب على خيالى : إلى اللقاء .

أحبها ، أرغب رغبة عارمة فى لقائها الليلة .
أزرا .. حققى أمنيته فى أن أشرب كأسها الآن ، نضطجع فى قبر واحد ، أنا على التراب وهى على صدرى ، بالخفة دمها ، تدغدغ ماتحت الابط ، ولا تضحك .
الميت يضحك سرّاً "

انتبه إلى نظرات الاستغراب والغزع فى عيوننا ، فقال بلهجة مرحة : أتعلمون أننى دعوت عرار وتيسير للقاء هنا فى أم الحيران للاحتفال بهذه المناسبة ، ستجدون هذا فى اعترافتى : لكنه لم يخبرنى أنه فى خطاب الدعوة هذا خاطب عرار وتيسير قائلاً (وربما شاكياً):
: الحق أقول لك ياعرار : سعود قبيلات يمشى أما أنا فأجربى ، انقطع نفسى ياتيسير ، هل مسدسك بدولاب أم بمخزن ؟"

اكتشفت هذا لاحقاً عندما قرأت الاعترافات ، وعندها أيضاً ، رأيت حجم ماكتبته فى وقت قصير ، فاكتشفت أننى تعرضت لأكبر خدعة من مؤنس الرزاز ، فقد أوهمنى أنه أكثر كسلاً من (ابلوموفوف) الأمر الذى أهله بغير وجه حق لترأس جمعية التتابة طوال حياته ، بلا منازع ، وكان يؤكد أنه الزعيم الوحيد الذى أمن شر الانقلابات ، لأن من يفكر فى ذلك يكون فى تلك اللحظة قد فقد مبرر انتظامه فى الجمعية .

أما لماذا دعا تيسير وعرار ولم يدع رفاقه فى عصابة الوردة الدامية ، فقد اكتشفت السبب أيضاً عندما قرأت الاعترافات ، فهو يقول :

" إلهم أننا كلنا نعيش الحياة ، معاً ، لكننى الوحيد فى عصابة الوردة الموله بأزرا ، تلك التى صدرها الناهض جواز سفرى إلى ماوراء العابر العارض ، تلك التى يفترض الناس أنها شاحبة وهى تضج حيوية على إيقاع حماسة متقدة "

ويضيف ملاحظاً :

" خداها ليسا شاحبين ، خداهما متفتحان ! "

وانتبهنا فجأة فإذا صف طويل من الناس قد وقفوا يتلقون العزاء ، عرفت من بينهم شقيقه عمر فقط ، وأردت أن أقول شيئاً ليوسف غير أنني لم أجده ، ففهمت أنه انسحب من دون أن نلفظ ، وقال مؤنس وقد لاحظ هو الآخر غياب يوسف : دعونا نلحق بيوسف، سيكون أكثر من يفتقدني من أصدقائي.

مشينا هو وهاشم وأنا ، فغيرنا الممر ثم الساحة ، وإذا بنا سريعاً خارج المقبرة ، وإذا بنا نرى يوسف يسير وحيداً وهو يعض على غليونه.

ناديناه فوقف ينتظرنا ، ومن هناك انطلقنا إلى بيت مؤنس ، حيث وجدنا سرادقاً كبيراً قد زعيم بقربه ، نزلنا من السيارة واتجهنا إلى السرادق ، لكننا فوجئنا بمؤنس يتخلف عنا وينادينا إليه فعدينا ، وقلت له : مايك ؟

قال : إلى أين أنتم ذاهبون ؟؟

قلت : إلى بيت العزاء ، كما ترى .

قال : وماذا ستفعلون هناك ؟

قلت : عجيب أمرك !! طبعاً سنقبل العزاء ونجامل المعزين .

قال : دعكم من هذا لنذهب إلى شرفة بيتي فنجلس هناك ونحدث عن أي شيء ، عن الراقص المجنون نيجينسكس ، مثلاً واعترافاته الغريبة في المصححة ، أو نسمع شيئاً من غناء أم كلثوم أو فيروز ، وسأقبل على مضض أن تشربا أنتما (وأشار إلى هاشم وإلى) شيئاً من الشاي ، أما أنا ويوسف ...

وهنا قاطعته قائلاً : لكن هذا لايجوز فالواجب يدعونا للذهاب إلى السرادق.

قال : كأنك نسيت أنني لطالما قلت : لا أريد أن يمشي أحد في جنازتي ، بل أكثر من ذلك ستجدون في اعترافاتي مايلي :

" سأجلس على شاطئ البحر الميت وقد عن لي أن أصدر منفستو يعفي أصدقائي من واجب المشي في جنازتي حين أموت "

وصمعت قليلاً ثم أضاف : هل قصدت حين أعيش ؟

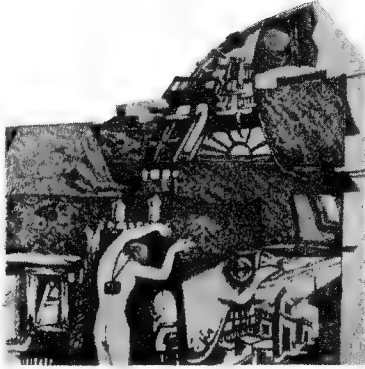
قلت : اسمع ، يبدو أنك أنت من نسي أنه قد مات وأن كثيرين مشوا في جنازته .

قال : لم أدعهم ، ربما كان والدي هو من دعاهم.

قلت : ربما فعل مع بعضهم ، ولكنني على يقين من أنك لو لم تدعهم أنت أيضاً لما جاعوا

قال : ومع ذلك فلن تستطيعوا اقناعي بالذهاب إلى هناك ، ثم أنني ميت يا إخوان ، والميت كما تعلمون لايقبل العزاء بنفسه .

قال هذا وسار ، فوجدنا أنفسنا ، كما يقال ، تحت الأمر الواقع ، وسرنا معه ، وفي هذا الأثناء راح يتلو من الاعترافات المقطع التالي :



" المهرجون فى الجنازة ، المهرجون فى دار عزائى ، مهدى لعبة مهرج ، لحدى لهو مهرج ،
الرحلة بينهما كرنفال تنكرى وموسيقى صاخبة ، وبخارة سكارى وغانيات بيعن الهوى
والبلابلين ، فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم "
دخلنا من الباب الخارجى وصعدنا إلى الشرفة بين أشجار الأسكنديا ، غير أننا لم نجلس
هناك ، فقد كانت مكتظة بالنساء المنتحبات الناثحات ، تجاوزناهن ودخلنا من بوابة البيت إلى
الصالون ، وفجأة لحنا أم مؤنس جالسة على مقعدها المتحرك ، فتوجهنا إليها ، وعندما
وصلناها انحنيت عليها وقبيلتها على خديها ، ثم استدرت وفعل هاشم ويوسف الأمر نفسه ، ثم
وقفنا إلى جانبها .

نظرت إلينا وهى تبكى : ويته مؤنس ؟

وعندئذ نظرت إلى حيث من المفروض أن يكون مؤنس فلمن أجده ، فاستدرت خارجاً وأنا
أبحث عنه بنظراتى ، ونزلت الدرج ثم خرجت من بوابة السور ، وبحثت أنظر عبر الشارع
الشارى المحاذى ، فإذا بى أراه يجرى مبتعداً ، للمرة الأولى أراه يجرى ، فرحت أمشى وراءه
مندهشاً وأنا ألتهت تكاد تنقطع أنفاسى من شدة المشى .

قاص أردنى

رصد الشظايا العربية

سميحة خريس

برحيل الروائي مؤنس الرزاز ، تفتقد الساحة الإبداعية الأردنية علماً وقامة عالية ، وتتحسّر تفاصيلها بكثير من الهلع ، فالأسماء التي أسست لهذا المشهد الروائي بالتحديد ، معدودة ، وغائبة بفعل الموت المبكر ، غالب هلسا ، تيسير سبول ، مؤنس الرزاز ، أسماء حصدها الموت مبكراً ، ولكنها تركت أثارها في جعل المسيرة الروائية الأردنية خاصة ذات طعم مميز.

أحد وخمسون عاماً عاشها مؤنس ومالبث أن طوى صفحة حياته ورحل ، تاركاً وراءه خمسة عشر عملاً مطبوعاً ، ومخطوطاً هو مفاجأة على صعيد الإبداع ، وتاركاً الكثير من الشجن ، ذلك أن مسيرة هذا المبدع بالذات لا يمكن فصلها عن الجانب الإنساني الذي كان أثر عميق ، بحيث يمكن القول إنه واحد من قلائل قادر على هذا التوازن العجيب ، وكأنه كان الظاهرة الأكثر قدرة على تجميع قلوب العباد حوله ، ولكن الذين عرفوه وأحبوه باتوا

اليوم أكثر دهشة من ذلك الأثر الأدبي الذى يتركه المبدع ، كأنما كان لحضوره الإنسانى الحميم وهج يغيب المبدع ، كأننا نعيد اكتشافه مجدداً .

أبدع الرزاز قصصياً وروائياً وصحفياً ، وتمكن من اختراع نهج رزائى ، وأسلوب خاص ، لعله يقوم على عناصر واضحة وضوح الرجل نفسه ، فمسيره حياته التى اغتنت بتجربة سياسية مبكرة ، وقريبة من سدة الحكم ممثلة بوالده أحد أهم أقطاب حزب البعث فى الأردن ثم سوريا ثم العراق ، الذى بدأ معارضا فى الأردن ، ثم حاكما فى كل من سوريا والعراق ، حاكم أقصاه رفاق دربه ولاحقوه . كانت هذه التجربة التى عاشها الفتى مؤنس تحفر عميقاً فى وجدانه ، وتعلمه أبجديات البشر ، كما تعلمه مخائلة الأفكار ، وتفتح فى روحه مساحة واسعة وشاسعة للقبول بالتعددية ، كما تنبهه إلى مواقع الظالم والمظلوم ، الحاكم والمحكوم ، فى خضم هذه الأمواج العاتية يكتشف الفتى أنه مبدع قادر على التقاط التجربة وتحويلها إلى فن .

عاش الرزاز ملتأثماً بالهم القومى ، قادراً على تحليل تلك التحولات والانقلابات وارتباكات السياسية التى تعترى عالمنا العربى فتشظيه ساحبة فى أذيالها إنسان مهموم واقع تحت ذات التشظى ، لكنه فى إطار الحلم الأكبر والمحاولة الأخيرة للوقوف على القدمين يشارك فى الحرب الأهلية اللبنانية ، من خلال علاقته بمنظمة التحرير وفصائلها وتنظيماتها ، تلك التجربة لن تنجح ، بل وتركت مزيداً من الجراح ، ليعود إلى عمان (١٩٨٢) فاتحاً صفحته على الثقافة ، وفى تقديرى بأن الوسط تجنى عليه وظلمه حين دفعه إلى التزام الدور المطلوب منه ، والذى هو دور مستمر لأحوال بات يدرك أن خللاً أصابها ، وما من علاج لها ، فشكل وترأس حزباً ديمقراطياً ، كما ترأس رابطة الكتاب الأردنيين ، وسرعان ماهرب من هذا وذاك ، متفرغاً لإبداعه ، ولم يكن تعيينه مستشاراً فى وزارة الثقافة إلا من موقع التكريم ، فشغل المنصب بشروطه الإبداعية العنصرية على الفهم ، والمقبولة من مؤنس وحده فقط ، وراح يثرى الساحة بأعماله الروائية ، كما يلتقى كل صباح بالمواطن فى مقال يومية فى جريدة الرأى ، وعندما تعجزه الكلمة كان يرسم .

هم العروبة يا حبيب

تفصح معظم أعمال مؤنس عن حياته ، ولكنها ليست سيرة ذاتية بقدر ما هى شهادة مريفة على عصر مر بهول كبير فى زمن قضير للغاية ، فتعكس أعماله الأدبية كما مقالاته الصحفية مجمل التمزق الذى أصاب الأوطان والإنسان على حد سواء ، الغريب فى الأمر أن هذه

الصورة السوداوية تمت معالجتها بكثير من الضحك ، والعبث ، هناك ضحك كالكباء ، هناك سخيرية سوداوية ، وهناك جرأة فى كشف المستور ، انظروا إلى عنوان كتابه الأول (مد اللسان الصغير فى وجه العالم الكبير) لعل هذا اللسان ظل معنوداً فى مجمل ماكتبه بعد ذلك.

عندما كتب (أحياء فى البحر الميت) بدا أن تجربته الفنية نضجت ، وانحازت إلى طرح المزيد من الأسئلة والمساغة حول مفاهيم تمسك بتلابيب العالم العربى قتمزقه ، أسئلة الحرية والديمقراطية والنهوض ، ولعل الساحة الأردنية لم تعرف مثقفاً مثل مؤنس يطرح الأسئلة ويسأل نفسه حولها ويعتبر حياته بكل عناصرها ساحة لتجريب الإجابات ، فإذا ما انتهى إلى حقيقة مؤداها بأن العالم العربى ممزق مشظى ، فإن ذاته انتهت إلى ذات النهاية ، يقول (والروح تصطرع مع نفسها إلى جانب صراعها الخارجى مع الجسد ، والنفس تعذب نفسها ، وقبائل الحواس تشوش ذاتها ، وتقطع شبكة اتصالها بالبال ، والعقل يجله حجاب ، والوجه يغطيه قناع رصين وقور .. هل بالغت ؟ أبداً ، واسألو المثقفين والمبدعين العرب من بجلة إلى النيل ، ومن نهر الأردن إلى جبال الأوراس إلى القدس ، من المذبحة الجوانية إلى حمامات الدم فى شوارع فلسطين وجبال الجزائر .. ترى ، أما لهذا الليل من آخر ٩٩)

تحيلنا أعمال مؤنس الرزاز إلى حقائق مخيفة ، حقائق كانت بيئة ، ولكننا أثرنا عدم الخوض فيها ، وحتى وهو يسجلها ، تفايينا ، لم نصدق جيداً بالنبوة التى وردت فى روايته (مناهات الأعراب فى ناطحات السحاب) لقد رسم مؤنس فى منتصف الثمانينيات الحال التى شاهدها مؤخرأ فى ٢٠٠٣ ، رسم مستقبل العراق كما حدث بالتحديد ، تحدث عن المفتشين الدوليين ، والطائرات الأمريكية تجوس الفضاء ، تحدث عن البحث عن أسلحة خطيرة على البشرية ، تحدث عن لعبة النفط ، وغياب الديمقراطية ، وتحالف الطامعين ، وتخاذل الخائفين ، وعن القادة الذين يخفون ليهيئ الغزاة سواهم ، على شاكلتهم ، لهم ذات الملامح ، مكلفون بذات المهمة ، ألا وهى جر الوطن إلى الوراء .. بدا كما لو أنه يصوغ نبوءة ، ولكننا لانعرف إلا بعد وقوع الحدث ، أما هو فانه يعرف ، لقد قال فى اعترافاته التى لم تطبع بعد (أرى ما لا ترون ، أسمع ما تسمعون ، بوسعى أن أرسم المشهد تشكيمياً ، أرى نساءً متشنجات بالسواد). أما اعترافات مؤنس الرزاز - سيرة جوانية ، كما أسماها فى بعض الشذرات التى نشرها قبل رحيله فى مجلة أفكار ، وجريدة الراى وغيرها - فهى عمل جديد فى الأدب العربى بكل المقاييس ، كان صاحبه يدرك جدة العمل ومقدار التحدى الذى ينطوى عليه من حيث هو

تجربة طيران بلا أجنحة ، فى عالم شديد الصرامة والحدة.

الاعترافات وشهوة الموت

لا يمكن أن نصنف مثل هذه الاعترافات على أنها سيرة ذاتية، وأن حملت من ملامح السيرة الذاتية الكثير، لهذا بلامعنى الحديث عن سيرة لم تكتمل ، أو عن أوراق اكتملت ، فما كتبه لم يبلغ به تسلسلا يفضى إلى نهاية ، بقدر ما كان تداعياً حراً محمولاً على حالته الذاتية ، أو كما أسماه قطعاً عرضياً من مجمل هذه الحياة ، وهذا يعيدنى إلى مجمل كتابات الرزاز الذى كان يكتب فى رواياته سيرته الذاتية ، ملتبسة بسير الآخرين ممن يعرف ويراقب ، ولكنه أبداً لم يجنح إلى كتابة سيرة حياة بالمعنى المتعارف عليه ، بدا لى مؤنس فى اعترافاته مستقيلاً من مقارعة الحياة يحتفى بذاته، يتعرف عليها، يحاول الهرب من العناصر التى دمرت جمالية أحلامه بالحديث عن الضربات الأشد قسوة ، النساء والإدمان (الكحولى) والسياسة ، ولأنه يدور كثيراً حول هذه العناصر فإنه يكرر ويعيد ويبرز ، وفى تقديرى أنه كتب معظم اعترافاته فى مرحلة اللامعنى فكانت هذه هى العناصر الأشد إلحاحاً.

- التجربة السياسية التى انهارت تاركة وطناً منزوع الأحلام ، وأحلاماً متناثرة كالأشلاء فى كلمات من تبقى من الرفاق الذين ثابروا على الضوض فى تلك الأحاديث الموحجة وذاكرة مشحونة بصور بالغة الوضوح لحياة الأب المناضل الذى تعقبه الرفاق وضاعت به الدنيا .

- إدمان الكحول الذى حاول علاجه مراراً دون جدوى ، فتمكن منه ، وعذب روحه بإطلاق المدي لها حيناً ويسحقها حيناً.

- والنساء اللواتى يحبهن ككائنات تؤثت العالم بالجمال ولكنه يريد من أمهات راعيات رحيمات ، ويريد نفسه معهن طفلاً محبوباً مدلاً معنى من المسؤوليات والتبعات ، يحلم بامرأة تقبله على علاقته ، ولعله وجدها على قدر ما فى الأم ، ولكن شغفه بالحياة دفعه للبحث عنها فى نساء كثر ، احتفى مؤنس الطفل بحنان وتفهم أمه ، ثم شريكة حياته وحين رفعت هذه الرعاية لأسباب متفرقة كما هو شأن الحياة ، بحث عن طفولته فى شقيقه الأصغر الذى كان فى مقام الابن له ، لكنه اختار أن يجعل منه أباً فى السنوات الأخيرة التى احتاج فيها إلى عطف وحنان الأب . هذه الحالات الشديدة الشجن كانت محوراً يدور حوله فى الاعترافات ولايكاد يقلح بالتخلص منه.

هذه الأوراق (الاعترافات) هى مزيج فريد بين الحالة الذاتية وما يدور فى أعماق الرجل ، وفى عقله حول الحياة وحول نفسه ، ولا يمكن القول بأن أهميتها تنبع من كون روائى مهم على

الصعيد المحلى والعربى قد كتبها ، ولا لتراجيديتها كون صاحبها رجل بعد أن سطر آخر كلماتها مودعاً ، بل الأهم من ذلك ماتحت به الكلمات من شجاعة مذهلة ، لم يكن صاحبنا يشير فقط إلى عرى الإمبراطور والجمهور ولكنه أيضاً يعرى ذاته بكل ما فيها ، لأول مرة يقدم لنا أدبياً عربياً روحاً مقشرة تجار بالحياء .

ولم يكن هذا المشروع (الاعترافات) رد فعل على ظرف عائلى أو عاطفى ، ذلك أن البحث فى أوراق الراحل كشف عن كراسة مدرسية سجلت فيها بدايات الإقدام على المشروع عام ١٩٩٨ عشية سفره إلى مؤتمر الرواية فى القاهرة ، بدأ مؤنس يكتب ما أسماه حينها (سيرة جيل) معبراً عن رغبة حادة فى البوح ، ولكن متخذاً دليلاً أقرب إلى الاتزان ، بحيث كان هو الراوى لمجمل الأحداث والأفكار ، هذه البدايات كانت أكثر اقتراباً من مفهوم السيرة الذاتية ، ولكنها مجرد شذرات لا يمكن التعويل عليها ، إذ من الواضح أن صاحبها نسيها بعد حين قصير ، كتب مايقارب خمسين صفحة (24) ثم توقف ، وأرجع بأنه لم يجد فى هذا البوح المراقب الرزين حاجته ومبتغاه ، ولكنه عاد إلى مشروعه مسلخاً بجرأة عادية وحرية تامة وإصرار على بوح مختلف مغاير ، وذلك بعد أن قرأ فى قلبه أن السفن كلها ، سفن حياته ، وسفن أحلامه ، قد غرقت .

يقول الرزاز عن نصه ، (هذا نص كتبتّه بعدما خلعت عقلى كالعقال بكماشة المهدى ... الحياة مختبر وأنا جرد تجارب الكتابة .. استهلكت كميات عظمت من الكحول كى أنتزع الجرأة الأدبية الكافية على مثل هذا البوح أحياناً ، وأحياناً كنت أنتزعها بعري جسارتي (الصرف) .

على أن الاعترافات تكشف عن ولع المبدع بالجرأة الأدبية منذ عام ١٩٧٨ حين كان له حديث مع جبرا إبراهيم جبرا حول خلو الأدب العربى من فن الاعترافات ، ثم تكشف عن تأثره باعترافات القديس أوغسطين وجان جان روسو ، ليؤكد أن الأول سحره والثانى ألهمه ، وعلى حد علمى كان يبحث بجدية عن أى اعترافات صدرت لمفكرين وأدباء ، فقرأ رسائل فان كوخ إلى شقيقه وقرأ اعترافات محمد شكرى ، واختار بعد كل هذا أن يذهب إلى أقصى الأقصى ، ويغمس ريشته فى ذاته نون أى كوابح أو اعتبارات ، كان همه الوحيد الفن ، وتقدير عمل شديد الصدق شديد الوجد ، عمل يشبه أعماقه الجوانية ، أن الاعترافات التى بدأ كتابتها فى ٢٠٠١/١/١٥ تحدثت عن حدث مخيف يهمس فى أذنيه أن المشوار أوشك على النهاية ، وينبئه بأن أمامه فى هذه الحياة عام واحد فقط ، فكتب (هذه رسالتى وقد أوشك قطافها .. إنه

خريفى الأخير ، عشائى الأخير)

تحمل أوراق الاعترافات دهشة عالية على صعيد الفن ، من حيث هى عمل نادر الوجود عربياً ، ومن حيث قدرة الكاتب على إمالة اللثام تماماً عن الروح ، ومن حيث هى كلمات كتبت فى برزخ بين الوعى واللوعى ، وهو أمر كان الكاتب يدركه تماماً ، بل ويدرك عواقبه الفنية على النص ، ولكنه لا يجازف بتعذيب النص أو إعادة صياغته .

تحمل الاعترافات استقالة موقعة من الدنيا ، ومغازلة غير مسبوقه بالموت ، إذ يزينه على صورة حسناء يطلبها ويستدعيها كحل لمجموع أوجاعه طالبا منها (ضربة رحيمة سريعة ، سرطان مفاجئ ، نقص فى الأوكسجين ، سكتة قلبية) ولم أعرف أديباً حاور الموت مثله دون أن يعاتبه أو يكرهه أو يسميه خيانة للحياة ، حيث جعل من عزرائيل ، أنثى جميلة وأسماها إنزرا وهام فى غرامها وانتظارها ، يقول (لقد نفذ صبرى يا حبيبتي .. إننى أشتاق لقسوتك البارقة كالخطف ، لغزوك المباحث كالسكتة ، لظلك الثقيل الذى يجعلنا بتؤدة ووجع ، ياسادية البهاء أقطعى تيار كهرباء هذا المخ ، لتتجلى الحياة بدائية حسية مظلمة بلا مراسيم متكلفة وطقوس مصطنعة

تعالى يا إنزرا لنقم بيننا سجلا رصيناً بعيداً عن التباس المعانى والمغانى ، تعاملنى معى على أننى زهرة ، واقطفى أجنحتى وأنت تقولين ، يحبنى ، لا يحبنى ، نتقيني ، كأن سوداويتى من ريش ، ثم اجعلى رمادى بين راحتيك .. وانفخينى . لعلى أنتائر فى مهب قهقهة معتمة لاتأخذ الدنيا على محمل الجد) .

بكل هذا الزخم من المشاعر الصاعدة خيئاً والهابطة حينئذ يندفع مستخدماً الاعترافات كسلاح فى تطهير الذات ويقول (أعترف أننى لجأت إلى هذا السلاح عندما أدركت أن البحر من ورائى ، وأتوّن المرائر من أمامى ، أيامى تمر من تحتى مع سفن البردى نحو مصيدة الياس ، كأننى النسر الذى ينقض إلى قنصه ، ومن فوقى سماء تسقط على رأسى كالصاعقة) مؤسس كان يعرف أن هذه أوراقه الأخيرة (أعرف أن محطتى الأخيرة دانية ، بوسعى أن أشم بارود مرساتى) من أين جاءت لحظة الكشف هذه ؟؟ لسنا نعرف ولكنه يشير إليها مراراً وتكراراً كأنها قنديل معلق بين عينيه (الأوراق الأخيرة فى المسودة الأخيرة .. لامتسع للنقص من حيث الزمن والطاقة) .

الرحيل

فى صباح يوم ٢٠٠٢/٢/٤ وعمان ما زالت تحتفل بتسميتها عاصمة للثقافة ، اختفى



العمود اليومي لمؤنس الرزاز في صحيفة الرأي ، وحل مكانه اعتذار رقيق يفيد بأن مؤنس طريح الفراش يعاني من حساسية ما ، وتوالت أيام ثلاثة قبل أن يعلن في صبيحة ٢٠٠٢/٦/٨ عن مفارقة المبدع الرزاز العالم إثر غصة اختنق بها ، قطعت تيار كهرباء المخ لنقص في الأوكسجين ، رحل تاركاً في صحيفة الرأي بياضاً لا يمكن تحبيره ، حيث كان الفن يمتزج بالقضايا اليومية ، حين كانت النكتة ترسم المشهد السريالي لعالم السياسة والثقافة ، اختفى القلم الساخر ، الذي كان مسلحاً بإمكانات الرائي ، والمؤلم أننا في كل صباح نفقد البدر والمقالات تتال في محاولة لى عنق الحقائق ، ومسح الثوابت ، محاولة لجعل الموت لذيقاً ، وتسمية الاحتلال تحريراً ، والركوع مرونة ، والخوف حكمة ، عندما يدب كل هذا الخراب نتذكر مقالات مؤنس وكلماته ومواقفه ، نشعر بالتشظى ولكننا نظل على أمل.

• روائية أردنية

شهادات عن الرزاز

لقد أصبح غياب مؤنس إذن غياباً يائساً ، لا يحتمل مراجعة أو إعادة نظر ، وهنا يبدو هذا الغياب قاسياً ويشكل خسارة كبيرة ، لأن الكاتب كان ينضج ، وبالتأكيد كان يتوقع منه الكثير .

عبد الرحمن منيف - روائي عراقي

فقد مؤنس الرزاز خسارة فاحشة للرواية العربية المعاصرة ، فهو من أبرز كتاب الجيل الثاني للرواية الأردنية ، وإذا كان لإبداعه من خصوصية ، فخصوصيته الأولى هي مواجهة القمع ومحاولة تعريته والكشف عن آلياته في واقع الإنسان العربي المكسور .

جابر عصفور - ناقد مصري

هذا الروائي بنى عالماً هو عالمه بامتياز ، وأسس لغة هي لغته بامتياز ، عطفاً على القضايا التي عالجها بجرأة وسخرية فاضحة آلية " الماكينة " السياسية التي تحكم العالم العربي وخصوصاً الآلية الديكتاتورية ، ما أصعب أن يغيب مؤنس الرزاز على عتبة القرن

الحادي والعشرين ، لقد غاب وقلبه يردد مع بطة " الختیار " ينبغي أن أرى القرن الحادي والعشرين ، سيكون عصر تحرر الشعوب المضطهدة

عبد وائز - شاعر وصحفي لبناني

رحيل مؤنس الرزاز خسارة كبيرة للرواية العربية ، وأنا أكن مؤنس كل الاحترام لأنه من رجال المبادئ المحترمين ، وهو كاتب مهم ومجدد إضافة إلى دوره الكبير في الرواية الأردنية والعربية .

صنع الله إبراهيم - روائي مصري

لم يترك لنا مؤنس وقتاً لنتقاضي هذه الحيرة احتجاج أمير ضد حقارة عصر وحقارة حال ، ترفع أمير ضد فساد ودناءة شاملين ، كناية أمير يترك الحياة والسعادة للسواد والأعراب ، معاناة من لا يتنازل عن معاناته ولو كان صليباً ، وتهكم من يتكلم من وحشة ووحدة لا يعيشها إلا من انفرد بنفسه ومكانه .

عباس بيضون - شاعر لبناني

لقد خسرنا طاقة إبداعية عربية ، سيكون من الصعب أن يغطي الفراغ الذي تركه إلا بعد مرور زمن طويل ، يمثل نبا الوفاة صدمة حقيقية بالنسبة لي ، فما زال الوقت مبكراً جداً على رحيله .

ممنوح عدوان - شاعر سوري

رحيل مؤنس ضربة مفاجئة وموجعة لي ، عاش حياة مأساوية سواء على صعيد العمل السياسي أو في عمله الفني الروائي ، ومات أيضاً ميتة مأساوية .

انوار الخراط - روائي مصري

نحنى إجلالاً لذكراه ، رحيله يحمل في نفوسنا من الأسى والحزن ما هو فاجع ، كان على الدوام الروائي الكبير والنقابي والسياسي النزيه القومي الملتزم بقضايا أمته ، إنه أحد الذين شكلوا الوجدان الوطني والقومي .

د. خالد الكركي - استاذ جامعي أردني

الشخصية التراجمية تكشف في نهاية المطاف أن العالم الذي تعيش فيه أصغر بكثير من حجمها ، لهذا تغادر العالم بشرعية عدم البقاء فيه ، رحل مؤنس عن وجدان الوعي المحدود إلى وجدان اللاوعي الذي لا حدود له ، إلى فضاء النص المطلق ، إلى أفق الخلود .

محمد شاهين - ناقد أردني



ها أنت يامؤنس قبل غيابك ، خصوصاً خلال العام من غيابك ، تتلو ورداً ورداً ، رواية
رواية ، على ماكننا ، مانحن فيه ، أو مانحن مقبلون عليه ، فماذا بعد يامؤنس ؟ ماذا بعد ؟

نبيل سليمان - روائي سوري

عهداً يامؤنس أننا سنبقى نعمل للحرية التي طالما عشقت ، من أجل أن تصبح كل مدننا
مدناً لامتوت ، وحينها فقط يعود إلينا مؤنس ، ذو القامة المديدة والضحكة المججلة ، والعينين
الواسعتين ، ليملاً حياتنا من جديد

معن بشور - مفكر لبناني

يا الله كم هو متعب وحزين هذا الخبر ، إنه فقد حقيقي ، كان أحد أهم الأصوات الأدبية
الجريئة والمهمة والمحاورة التي لا يمكن إلا أن تشعر بغايبها ، مؤنس أت من تجربة حقيقية ،
عمل طوال الوقت على تشكيل رؤيته وتجاربه الإنسانية في سبيل إغناء الحوار والعمل الثقافي
والسياسي إضافة إلى محبة الأرض التي نعيش فيها.

قاسم حداد - شاعر بحيرني

كان التاريخ يهبط وأنت تحاول الصعود ، بنفسك وبما حواك ، كنت ترى وتؤمن أن الإنسان
في اللحظة التي يختار فيها طريقاً فإن كل شيء يأخذ عنده معناه ، فيعرف لماذا اختار ماكان
قد اختار وإلى أي غاية يسعى بنفسه.

ماجد السامرائي - ناقد عراقي.

سيرة ذاتية

ولد مؤنس منيف الرزاز في العام ١٩٥١ في مدينة السلط في الأردن ، وتلقى تعليمه في مدينة عمان ، مدرسة المطران.
رحل عام ١٩٦٥ إلى دمشق عقب انتخاب والده أميناً عاماً للقيادة القومية لحزب البعث الاشتراكي.

درس اللغة الإنجليزية في جامعة اكسفورد ، ثم عاد إلى بيروت لدراسة الفلسفة لكنه لم يكمل دراسته إذ اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية ، انتقل إلى العراق حيث شغل والده منصب الأمين العام المساعد للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي ، أكمل دراسته هناك ، وشهدت تلك الفترة صدور مجموعته القصصية الأولى (البحر من ورائكم)
غادر إلى أمريكا لإكمال دراسة الفلسفة في جامعة جورج تاون ، ثم إلى بيروت حيث عمل باحثاً في مجلة (شئون فلسطينية)

عاد إلى عمان عام ١٩٨٢ ، ومنذ منتصف الثمانينيات بدأ يبرز في النتاج الأدبي

الغزير والنوعى ، استحق جائزة الدولة التشجيعية ، ثم التقديرية ، ونال ميدالية الحسين للتفوق ، وقد اختارت اليونسكو روايته (الذاكرة المستباحة) لتكون ضمن مشروع كتاب فى جريدة. عمل مستشاراً لوزير الثقافة ، إضافة إلى أنه كتب عموداً ثابتاً فى صحيفة الدستور ثم رأى ، ترأس رابطة الكتاب الأردنيين عام ١٩٩٣ ، وانتخب أميناً عاماً للحزب العربى الديمقراطى ، مالبث أن استقال من المنصبين متفرغاً للكتابة رحل يوم ٢٠٠٢/٢/٨ إثر حالة اختناق لم تسعفه طويلاً.

هذه له تبعاً

- مد اللسان الصغير فى وجه العالم الكبير - خواطر

- البحر من ورائكم - قصص

- النمرود - قصص

- أحياء فى البحر الميت - رواية

- اعترافات كاتم صوت - رواية

- متاهة الأعراب فى ناطحات السحاب - رواية

- جمعة القفارى أو يوميات نكرة - رواية

- الذاكرة المستباحة - رواية

- مذكرات بيناصور - رواية

- الشظايا والفسيفساء - رواية

- فاصلة فى آخر السطر - رواية

- سلطان النوم وزرقاء اليمامة - رواية

- عصابة الورد الدامية - رواية

- حين تستيقظ الأحلام - رواية

- ليلة غسل - رواية

- الغائب الحاضر - مقالات صحيفة جمعت بعد رحيله

- المجموعة الروائية الكاملة - صدرت بعد رحيله

- له مخطوط الاعترافات - لم ينشر بعد.

الشخصية العربية بين التقليدية والحداثة

د. عاطف أحمد

لست أعنى هنا بتعبير الشخصية العربية المعنى الذى يتبناه " هشام جعيط " فى كتابه من " الشخصية الإسلامية والمصير المشترك " (دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠) ، والذى يتناول العملية الجدلية التى تتحدد من خلالها العلاقة بين العروبة ، التى تمثل الرابطة القومية ، والإسلام ، الذى يمثل الرابطة الأيدولوجية الثقافية والدينية ، من منظور تاريخى . حيث يحاول دراسة تلك العلاقة من خلال جدلية الاستمرارية والتغيير والإصلاح والتجديد الدينى هادفاً إلى دمج الإسلامى فى العروبى وتكوين بناء موحد للإنسان العربى المسلم وفى الوقت نفسه ، فلست أعنى بذلك التعبير إجراء تحليل سيكولوجى على الطريقة الفرويدية كما يفعل " على زيمور " فى مشروعه الذى يحمل عنوان " التحليل النفسى للذات العربية " (دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٧) رغم أننى بطبيعة الحال اتفق معه فى بعض النتائج التى أرى أنها ليست وثيقة الصلة بمنهجية التحليل النفسى بل هى أقرب إلى أن تكون تعبيراً عن ملاحظات عامة لتصرفاتنا وسلوكياتنا فى حياتنا اليومية . ليس هذا فحسب بل إننى أوافق معه فى الهاجس الأساسى الذى دفعه إلى التفكير فى إشكاليات الواقع الراهن على هذا النحو ، ذلك أنه يرى أن الذات العربية تعاني من " إخفاقات فى التكيف مع الحضارة العالية والعقلية العلمية " كما تعاني من إخفاق فى التوازن مع النفس وأن مشروعه كله إنما هو محاولة لعلاج هذا الإخفاق الناشئ عن " السلوك الخرافى والعقلية الانفعالية اللاعلمية " . كذلك اتفق معه فى الهدف الذى سعى إليه والذى ينبئ على ضرورة أن نكتسب عقلية أو طريقة فى التفكير " تكون إيجابية ، نقادة ، موضوعية ، تعمل على القوانين والانتفاع منها " .

فبالنسبة لى ، فإننى أتناول الشخصية العربية باعتبارها مفهوماً عاماً يشير إلى السمات التى نجدها

لدى العرب عموماً كافرين أو جماعات والتي تميز الإنسان العربي- إذا جاز هذا التعميم عن سواه .
وهي سمات لم أصل إلى تحديدها من خلال أى منهج تجريبى أو استقرايى أو حتى إحصائى وإنما من ملاحظات وخبرات شخصية وأنشغال بالموضوع فضلاً عن بعض الوقائع والتحليلات التي وجدها هنا وهناك دون إطار منهجى محدد. وإن كنت أميل فى هذه اللحظة إلى اعتبار المنهج الفنونولوجى وأقرب المناهج الملائمة للطريقة التي تناولت بها هذا الموضوع . والواقع أننى حاولت جاهداً أن أضع الظاهرة أمام النظر العقلى المباشر والتصدى والذي يبدو لى أنه متحرر من أى أحكام أو تحيزات أو تفضيلات مسبقة مستهدفاً الوصول إلى رؤية شاملة بقدر الإمكان تكون بمثابة فرضية تفسيرية لفهم وتحليل الظاهرة موضوع البحث وهى الشخصية العربية.

وأتصور أن هناك أربعة محاور أو مستويات أو عوامل يمكن أن تكون قد أسهمت فى صياغة شخصية الإنسان العربى المعاصر : أولاً الموروث الثقافى والدينى على وجه الخصوص ، وثانياً التحدى التاريخى للآخر الأوروبى أو الغربى عموماً ، وثالثاً التأثيرات الناتجة عما يمكن تسميته بعملية الحداثة المشوهة التى شهدتها مجتمعاتنا العربية بدرجات متفاوتة ، ورابعاً تأثير ما نتج عنها فى الغرب من رؤية نقدية ما بعد- حداثية ثم تطوراتها الأخيرة فيما يعرف بظاهرة العولمة وبخاصة مضمونها الليبرالى الجديد وحرية التجارة ذات الاتجاه الواحد أساساً وابتعاد الدولة تماماً عن مجال النشاط الاقتصادى.

فأما بالنسبة للموروث الثقافى الدينى والذي يمثل المحور الأول والأساسى فى تشكيل الشخصية العربية المعاصرة فهو ذو دور فاعل شديد الفاعلية فى تكوين الشخصية العربية سواء كان على مستوى الشعور أم اللاشعور الجمعى الأمر الذى يبدو واضحاً من خلال حقيقة أن الصراع الاجتماعى على مدى التاريخ العربى إنما تميز بأنه ، وأياً كان نوعه ، اتخذ شكل صراع دينى.

ولعل منشأ تلك السمة أى ارتباط السياسى بالدينى أو بتعبير أدق تبرير السياسى بالدينى ، فربما يرجع إلى ظاهرة فريدة فى التاريخ ، وهى أن النبو كان هو الذى أسس بنفسه دولة سياسية ذات مشروعية دينية مستمدة من حضوره الشخصى ، هنا أولاً. وثانياً فقد كان التوسع المسلح وغزو الآخر التى تأسست عليه الخلافة إنما تم باسم الدين وبالتالي ظلت المشروعية الدينية هى مشروعيتها الوحيدة

باعتبار أن الحاكم هو خليفة الرسول في الحكم. وهكذا استمرت الأمور حتى الخلافة العثمانية التي نسبت نفسها وعزت مشروعية غزواتها وتوسعاتها ، أيضا - إلى الدين.

فإذا أضفنا إلى ذلك الجمود التاريخي الطويل الذي عانت منه المجتمعات العربية الإسلامية بعد ذلك والذي أدى إلى هيمنة المركب الثقافي-الاجتماعي الريفي أو البدوي ، القائم على العائلة الممتدة أو القبيلة كوحدة اجتماعية مستقلة تختص بالتنشئة الاجتماعية للأفراد إطاراً للانتقام والولاء والقيم ، فإننا ندرك إلى أي مدى من العمق يمكن للموروث الثقافي الديني أن يتغلغل في الشخصية العربية ويلعب دوراً محورياً في صياغتها.

يضاف إلى ذلك ، هيمنة اللغة العربية وثقافتها الخاصة . وبالذات الميل إلى إضفاء طابع القداسة عليها باعتبارها لغة القرآن الأمر الذي أدى إلى تجميدها في قوالب ثابتة والذي نولا للضرورات العملية البحتة لظللنا نتحدث ونفكر داخل تلك القوالب بمفرداتها وتراكيبها.

وقد أدت تلك العوامل الخاصة بالموروث الثقافي الديني إلى تكوين سمات معينة في الشخصية العربية ، ظلت ذات تأثير هنا وهناك في طبقات مختلفة من الشعور أحيانا من اللاشعور ، وهي تأثيرات يمكن رصدتها على عدة مستويات نفسية وفكرية وسياسية ولغوية وحياتية :

• فعلى المستوى النفسي يمكن القول أننا ما زلنا أسرى التركيبة النفسية الاجتماعية التي عبر عنها الشعر البدوي القديم والتي تجعلنا معتدين بذواتنا إلى حد التعالي على الآخرين أيا كانت جدارتهم ، وتجعلنا ، في الوقت نفسه ، شديدي الاهتمام بسلوكنا الخارجى دون حقيقتنا الداخلية ، بل لعل نفس تلك التركيبة هي التي تجعلنا نعيش دائما في تناقض بين القيم المعلنة (المبالغ فيها والمثالية) وبين الواقع الإنساني مما يؤدي إلى ازدواجية القول والفعل ، وانقسام العلاقة بينهما ، وهي العملية التي تستتبعها عدة مواقف سلوكية :

منها أننا نقول ما هو متوقع وواجب ومتفق مع المظاهر الاجتماعية ، بينما نفعل في الواقع ما هو متوافق مع الرغبة والمصلحة والدواعي الشخصية ، ومنها اعتبار القول فعلا وحلول الأقوال محل الأفعال ، ولعل الأهم من ذلك هو ازدواجية وجدان والسلوك التي تتبدى في عدم الاعتراف العلني بالرغبات الداخلية مما يؤدي إلى كبت التعبير عنها وبالتالي إلى زيادة وحدتها والتركيز الشديد عليها

(النهم الجنسي والحسى عمومًا). وهو ما يخلق لدينا حالة خاصة من الانقسام بين مكونات الشخصية.

وعلى المستوى العقلي: ربما بتأثير المعتد الراسخ لدينا هو أننا كنا وما زلنا وسنظل -خير أمة أخرجت للناس، لأن لدينا- وحدنا- كلام الله ولدينا- وحدها- خاتم الأنبياء، وربما أيضا، لأن الواقع الفعلي، ينشأ دائما أننا لسنا كذلك بأى مقياس من المقاييس، وأن الآخر الأوروبى، الذى هو حاضر فى عقولنا وأبصارنا وأذناننا طوال الوقت، متفوق علينا تفوقا ساحقا، أقول إنه ربما بتأثير تلك العوامل وما يماثلها، نشأت لدينا عقلية الدوجما: وهى مركب عقلى- نفسى من شأنه أن يقضى الآخر بالكامل فى الخيال على الأقل ويتسم بخصائص معينة من مثل:

- الوقوع تحت سطوة اعتقاد قاطع راسخ غير قابل للتعديل وفقا لمعطيات الواقع أو استدلالات المنطق بصحة ما يؤمن به الفرد وببطلان ما يؤمن به الغير.

- ويتميز هذا الإيمان بأنه محمل بهخنة عاطفية انفعالية هائلة تدفع إلى التعصب الشديد للدفاع عنه ضد الآخر الذى يعتبر عدواً شخصيا يجب القضاء عليه بأى صورة ممكنة.

- كما يتسم بالتماسك والتضامن مع من يشاركونه نفس الموقف ويعتبر أنهم يشكلون معاً وحدهم حزب الحق.

- كذلك فنحن كثيراً ما نتبنى عقلية المؤامرة التى تفرض أن قوى الرأى الآخر يدبرون لنا مكيدة ما، كراهية منهم لنا لأنهم يعلمون أننا وحدنا الذين نملك الصواب.

- وكل ذلك يؤدى إلى إقامة هوة واسعة، تفصل بين من يشايعوننا الرأى وبين من يخالفوننا إياه. وفى الوقت نفسه، وربما بسبب الوضعية المتأزمة التى يؤدى إليها الموقف الدوجمايى، تنشأ لدينا عقلية منصرفة إلى الأقوال لا إلى الأفعال وعازقة عن تحليل الواقع ومن هنا عدم الفاعلية فيه.

- وأما على المستوى السياسى فتسود لدينا عقلية الوصاية الأبوية الاستبدادية، حيث يلعب الحكام لدينا وأيا كان النظام السياسى المعلن، دور الأب الراعى للمجتمع بأسره والذى يكتسب بذلك وضعية شبه تقديسية تجعله صاحب القرارات السيادية العليا التى هى دائمة الصواب لأنها تعبر عن حكمة شبه إلهية لا يراجعها فيها أحد كما أنه من غير الوارد أن يترك موقعه مادام حياً.

كما تغيب لدينا روح العمل الجماعى (المدنى) لحساب الفردية العائلية أو القبلية . وبالتالي نظل بعيدين تماما عن مجتمعات المؤسسات المدنية المستقلة والفاعلة فى مختلف المجالات .
كذلك فإننا على المستوى اللغوى: نجد أن لدينا ولعا خاصا بالجدال والمبارزات اللفظية وتحقيق الانتصارات الصوتية ذات النبرة العالية دون اعتبار للواقع الفعلى ، وميلا إلى إطلاق الأحكام العامة القطعية دون أدلة كافية.

هذا بالنسبة للمحور الأول الخاص بالموروث الثقافى الدينى.

أما بالنسبة للمحور الثانى والخاص بالعلاقة بالآخر فإن الشعور بتفوق الآخر علينا بما لا يقاس وحيث لا تبدو فى الأفق-الغريب أو حتى البعيد-أى احتمالات للتساوى معه ، قد أدى إلى إحساس عميق بالمهانة تجاه ذلك الآخر القوى والمتقدم من ناحية ، والشعور بعدم القدرة على الاستغناء عنه- لأننا لا نستطيع سوى أن نستهلك ما ينتجه- من ناحية ثانية. ومثل تلك العلاقة المتناقضة ، من الطبيعى أن تصبح محملة بتوترات لاحصر لها. والواقع أن ثمة هوة بالغة الاتساع بين صورة كل منا فى عيون الآخر. وربما كانت الوقائع والظروف التاريخية التى أحاطت بالالتقاء بينهما هى التى أسهمت فى تعمد ذلك التصور المتبادل. وإن كان ذلك بطبيعة الحال لا ينفى على الإطلاق دور الهيمنة الاستعمارية فى خلق تلك التناقضات .

وهو دور كان يقتضى على الأقل ، فى الوقت الراهن ، اعتذاراً رسمياً من الغرب . على أى حال فقد أدت تلك الوضعية إلى وقوعنا فى إشكالية ملتزمة تجاه الحداثة.

أما بالنسبة للمحور الثالث فيمكن القول بأن اقتحام الحداثة الآتية من الخارج والمباغتة ، لبنيات تقليدية ذات موروث ثقافى دينى متجذر وطويل المدى جعلها تمس السطح الخارجى للمجتمع دون عمقه الداخلى: النفسى والعقلى والقيمى والسلوكى، حيث اختلطت فيه الأمور فنتج من ذلك ما يمكن تسميته بالحداثة الظاهرية المشوهة. بمعنى أننا حدثيون من حيث الأطر المادية للحياة الاجتماعية لكننا فى داخلنا وفى سلوكياتنا أقرب إلى تكوينات العصور الوسطى منا إلى الحداثة . وهذا مصدر آخر للتناقض والازدواجية فى تكوين شخصيتنا.

ذلك أننا إذا اتفقنا على أن نكون واقعيين وموضوعيين، فعلينا أن نتذكر كيف التقى كل من الغرب والمسلمين بعضهما ببعض. لقد التقينا بالغرب الأوروبي من خلال العملية الاستعمارية القائمة على القوة والتقدم العلمى والتكنولوجيا من طرف، والمقاومة والتخلف الاجتماعى والسياسى والعسكرى من طرفآخر. وهو ما يجعلنا أسرى إشكالية تبدو بلا حل.

أما بالنسبة للمحور الرابع، ولعله يختص بالمجتمع المصرى أكثر من سواه من البلدان العربية، فهو يتمثل فى التحول الذى حدث من اقتصاد الدولة ومركزية التخطيط والحزب الواحد إلى التعديل الهيكلى والخصخصة والتعددية الحزبية أى ما يسمى بالانفتاح الاقتصادى والسياسى.

والواقع أن ذلك التحول، مثل أى شىء فى حياتنا، لم يكن عملية مدروسة على مستوى متخصص، ولا متدرجة فى تطبيقها، ولا كانت عملية تلقائية حدثت فى المجتمع نتيجة لعوامل داخلية فيه، بل كانت نتيجة لقرارات سياسية آتية من قمة السلطة، لدوافع لا علاقة لها بجذوى مثل هذه العمليات أو فائدتها للمجتمع. فأحدث ذلك خلاا اجتماعيا واقتصاديا خطيرا فى بنية المجتمع. إذ صعد بطبقات المقاولين والسماسرة والحرفيين والمغامرين من كل نوع، وجمد أوضاع الطبقات الوسطى والمتخلفة بالذات، وأطاح بالطبقات الأدنى، وهشمش فئات اجتماعية لا حصر لها. وبطبيعة الحال أحدثت تلك التحولات الفوقية تغيرات عميقة فى منظومة القيم السلوكية ومنظومة الدوافع التى أصبحت تحرك الأفراد.

فقد سادت قيم الشطارة والفسهولة، والحصول على المال دون أى عمل حقيقى، وقيم الصعود بأى ثمن والمشائية والنفعية، كما سادت النزعة الفردية والمادية الأخلاقية والبحث عن الثراء والنفوذ دون اعتبار لأى شىء آخر.

ومن ناحية أخرى.. شهدت نفس الفترة بروزا واضحا لحركات العنف الدينى. وعلى الرغم من أن التطرف الدينى ظاهرة موجودة فى كل المجتمعات تقريبا. خاصة وقت الأزمات. لكن هناك فرقا بين التطرف الدينى فى الفكر وبين العنف الدينى المسلح الذى يحاول تغيير النظام السياسى بالقوة المسلحة والاستيلاء على السلطة وفرض معتقداته على المجتمع بأسره بالقوة الجبرية.

فهذا ما حدث فى منطقتنا. فإذا أضفت إلى ذلك حجم الظاهرة ومناها، فربما وجدت هنا ما يميزنا قليلا أو كثيرا عن المجتمعات الأخرى.

وجدير بالملاحظة أن التطرف لدينا ليس مقصورا على التطرف الدينى بل هناك أنواع أخرى من التطرف ربما كانت حتى مناقضة للتطرف الدينى. فهناك الهوس بما ينتجه الغرب من وسائل الترفيه والأغاني واساليب الحياة، وهناك انحلال خلقى شديد أيضا قد يصل إلى حد التطرف، مثلما لدينا هوس بالشكليات الدينية دون تدين حقيقى أو حتى إنلام بأبهديات قراءة القرآن مثلا. يبدو إذن أن التطرف هو سمة عامة فى مجتمعنا نتيجة لأزمة عامة عميقة يمر بها هذا المجتمع.

أما بالنسبة للسمات الشخصية للمثقفين، فالتاريخ الحديث يفسر لنا، إلى حد كبير، أسباب التحولات السلبية لديهم.

لقد كانت هناك، قبل الثورة، ارسقراطية ريفية ذات تقاليد راسخة وكان أبناؤها يتلقون تعليما غربيا وينشأون على الأساليب الأوروبية فى الحياة ويحتفون بالثقافة والفنون.

ثم جاءت الثورة ولديها شكوك عميقة فى المثقفين. فظلت هناك فجوة قائمة بينهما حتى انضمت إليها اتجاهات يسارية فكرية، كان النظام- فى تحولاته البراجماتية- فى حاجة إليها، فنشأت مؤسسات ثقافية إدارتها الدولة وشارك فيها قطاع لا بأس به من المثقفين. لكن كثيرا منهم أيضا ظل ملتزما الصمت. لأنه لم يكن متاح وقتها سوى الصمت. أما من فضل منهم بالكلام فإما أنه كان يتم نفيه بطريقة أو أخرى إذا كان ناقدا للسلطة أو تجرى عليه تحولات ما تجعله يقع فجأة فى هوى السلطة فيندمج فيها بل وقد يصبح من كبار المنظرين لها.

وحينما حدث الانفتاح، بدأ نوع من حرية التعبير الشكلى التى تبين قيما بعد أنها كانت ذات سقف منخفض جدا. لكن التحولات الاقتصادية والاجتماعية أطاحت تقريبا بتأثير المثقفين لتطفو على السطح نخبة لا علاقة لها بالثقافة إن لم تكن على علاقة عدااء لها. وتشكلت نخبة سياسية واقتصادية مقاربة لها ومن نفس نوعيتها. وما زالت بقايا هذه النخب هى التى تشكل الطبقات الثقافى الفعال فى المجتمع حتى الآن. من هنا تدنى مستوى الفنون والثقافة خاصة فى أجهزة الإعلام.



كذلك فإن نظام التعليم لدينا ، وهو مصدر هام من مصادر تكوين الشخصية ، يسمح بتخريج أميين بجدارة أيا كانت الدرجات التي يحصلون عليها . ولعل من الأمور الواضحة أن نوى التعليم العلمى البحت أو التطبيقي (التكنولوجى) أكثر أمية من سواهم فى المسائل المتعلقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ، إذ يغيب لديهم الأفق النظرى والنقدى على السواء .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فحينما لا تكون هناك سلع جيدة منافسة فى السوق ، فإن الذوق نفسه يتعود تدريجيا على السلعة الرديئة أى على رداءتها بل حتى ربما يدمنها . الأمر قد يفسر انحطاط الذوق العام فى مختلف المجالات .

فإذا أضفنا إلى ذلك . ما تتعرض له الأجيال الجديدة من تأثيرات عاصفة تحملها معها رياح العولمة ذات التوجه الليبرالى الجديد ، بما تحمله معها من إحلال لثقافة الصورة المتحركة السريعة الإيقاع والصاخبة والتي يتم تلقيها بروح خلت من أى حس نقدى أو تفكير مستقل بل بنوع من التصديق الساذج لمقول لا تعرف معنى الفكر النقدى لأنها لم يحدث أن مارسته من قبل ، يمكننا تصور حجم الكارثة التى تنتظرنا ؟ ، إن لم يكن فى القريب العاجل ، ففى المستقبل الذى ليس شديد البعد عنا أكان ذلك فى الزمان أو المكان .

صفحات من كتاب : النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ،

للمفكر الراحل : د. حسين مروة

(٢)

المواقف المختلفة من التراث الفكري

د. حسين مروة

بعد كل ماسبق من إيضاحات منهجية في سياق هذه المقدمة ، نصل إلى مرحلة الاستقصاء التاريخي النقدي لمختلف المواقف من التراث الفكري العربي - الإسلامي بعامة ، ومن قسمة الفلسفي بخاصة ، في الماضي والحاضر ، هذا الاستقصاء تفرضه ضرورة منهجية أيضاً . ذلك لكي نرى ، في ضوء الإيضاحات السابقة ، وفي ضوء المقارنات التي يستوعبها هذا الاستقصاء ، مدى الموافقة أو المخالفة للأسس النظرية والأيدولوجية التي اعتمدناها في طريقة التعامل مع التراث ، ولكي نبحث عن الأسباب الكامنة وراء كل موقف موافق أو مخالف لهذه الأسس ، ثم لكي نستخلص من ذلك كله - في نهاية الأمر - صيغة موجزة في هذه المقدمة للجواب عن السؤال الذي طرح نفسه علينا منذ لحظة التفكير بمشروع تأليف هذا الكتاب ، وظل يطرح نفسه طوال سنوات البحث والاستقصاء اللذين جعلنا من هذا الكتاب نفسه جواباً عنه . كان السؤال هكذا : أي ضرورة تدعو لإضافة كلام جديد حول التراث الفكري العربي - الإسلامي ، والفلسفي منه بخاصة ، بعد الكلام الكثير والحشد الضخم من

المؤلفات الموضوعة عن هذا التراث منذ نهايات القرون الوسطى حتى نهايات النصف الثانى من القرن العشرين؟

إن رصد المواقف المختلفة من هذا التراث ، على نحو من الاستقصاء الشامل ، فى مؤلفات القدماء والمحدثين ، هو الذى حدد لنا وجهة الإجابة عن السؤال المطروح هذا ، وحدد لنا أيضاً أسلوب هذه الإجابة . فقد وجدنا ، خلال البحث والاستطلاع ، أن كثيراً من هذه المواقف ، على اختلاف عصورها واختلاف بيناتها الاجتماعية واختلاف معاداتها المعرفية ومقاييسها التى تنطلق منها فى تقويم التراث ، قد ظل فى نطاق الموقف الوحيد الجانب ، كما أشرنا فى مستهل هذه المقدمة . ونحن معنيون فى هذه المرحلة من المقدمة أن نعرض ، بكثير من التفصيل ، مايلقى الأضواء الكاشفة عن صحة مانزعم من دعوى أحادية الجانب فى الكثرة الغالبة من تلك المواقف . لن يكون هذا العرض سرداً مجرداً للأشخاص والمؤلفات . فإن هذه الطريقة أبعد ماتكون عن منهجيتنا فى البحث ، لأنها أقرب إلى التنازل الذاتى . ولكن ، قد نلجأ إلى شىء من السرد اضطراراً خلال تحليل المواقف وتصنيفها بين هذا التيار وذاك .

إن الذين كتبوا فى التراث الفكرى العربى - الإسلامى : تاريخاً ، أو تفسيراً ، أو دراسة ، هم مختلفون بانتماءاتهم التاريخية والاجتماعية والأيدولوجية ، مختلفون بجنسياتهم الوطنية ومستوى المعارف التى تنطلق منها رؤية كل منهم لمحتوى التراث ، فإن منهم القدماء والمحدثون ، ومنهم التقدميون والمحافظون ، الماديون والمثاليون ، السلفيون والعدميون ، ومنهم العرب والأشوريون والغربيون ، ومنهم المؤرخون واللاهوتيون والباحثون الاجتماعيون والفلاسفة . إن هذا التداخل المعقد بين مختلف الانتماءات تلك ، لايسمح لنا باختيار التصنيف المبسط الذى يفرز كل انتماء على انفراد . فلإبد إذن من اختيار التصنيف المتداخل على غرار الانتماءات المتداخلة ذاتها ، لذا سنعتمد نوعين متداخلين من التصنيف : أولهما ، منهجى يقوم على أساس اختلاف مناهج الرؤية للتراث والأساليب الفكرية فى معالجته ، ثانيهما ، توضيحى يصنف الباحثين فى التراث إلى ثلاثة فرقاء :

- ١- العرب والشرقيون القدماء (بين القرون الوسطى والعصور المتأخرة حتى القرن الثامن عشر)
- ٢- العرب والشرقيون المحدثون (منذ القرن التاسع عشر حتى لحظتنا هذه من القرن العشرين)
- ٣- الباحثون الآخرون من مختلف الجنسيات الوطنية ، ولاسيما المستشرقين منهم .

أما التصنيف الأول المنهجي فيشمل جميع الفرقاء الداخلين فى التصنيف الثانى التوضيحى .
لأن هؤلاء جميعا لا يخرج أحد منهم عن أن يكون منتهجا أحد الأساليب الفكرية الأربعة الآتية :
أولاً - أسلوب النظر إلى تاريخ تطور الفكر ، ولا سيما الفلسفى منه ، على أساس أنه تاريخ
أفكار فقط أو نتاج فكر « شخصى » تنحصر علاقاته بأشخاص منتجيه ، دون النظر إلى أى
علاقة له أو لهؤلاء « الأشخاص » بطروف العصر الذى ينتسبون إليه ولا بخصوص المجتمع الذى
عاشوا وفكروا ضمن علاقاته الاجتماعية وضمن الخصائص التاريخية المتميزة لهذه العلاقات ، أى
دون النظر إلى صلة العملية الفكرية بعملية التفاعل بينها وبين مجموعة من العلاقات الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية والتاريخية . إن الذين أخذوا بهذا الأسلوب الفكرى فى كلامهم على
تراث الفكر العربى - الإسلامى ، من مختلف الفرقاء الثلاثة فى تصنيفنا السابق ، قد اكتفوا من
الكلام على هذا التراث بطريقة سرد تسلسلى وتفسيرياً مجرداً من كل علاقة تفاعلية بين أصحاب
الأسماء والأفكار هذه وبين مجتمعاتهم وعصرهم . ولكن ، هناك علاقة وحيدة كان ينصب عليها
اهتمام أولئك المؤرخين والباحثين ، هى علاقة التأثير أو التأثير بين اللاحق والسابق من مفكرى
التراث هذا ، أو بين كل واحد منهم وبين هذا المفكر أو الفيلسوف وذاك من خارج الفكر العربى -
الإسلامى ، كمفكرى اليونان والفرس والهند أو فلانتهم . ذلك يعنى أن أولئك المؤرخين والباحثين
يحصرون العلاقات التاريخية فى العلاقات الفردية أو التأثيرات الذاتية ، لكأن كل فرد يشكل
عالمًا وحده مستقلاً منعزلاً عن عالم الواقع الاجتماعى ، ولكأن التأثيرات المتبادلة بين الأفراد هى
علاقات مجردة تجري مباشرة عبر هذه « العوالم » بذاتها وباستقلالها وانعزالها عن علاقات
الواقع الاجتماعى .. ومن الواضح أن أسلوب النظر هذا هو ضرب من التفكير المثالى .

ثانياً - أسلوب النظر إلى علاقة التبادل بين ثقافات الشعوب ، بعضها مع بعض ، نظراً
ميكانيكياً صرفاً ، يكتفى بأن تنتقل ثقافة شعب إلى شعب آخر ، بوسيلة ما ، لكى تسيطر على
تفكير الشعب الذى انتقلت إليه ، ولكى تنفى السمات الخاصة لثقافته وتطبع هذه الثقافة بطابع
سماتها هى ، أى سمات الثقافة الخارجية الوافدة . بهذا الأسلوب الفكرى نظر الكثير من البحوث
والدراسات التى اهتمت بالفلسفة العربية - الإسلامية ، ولا سيما ما كتبه بعض المستشرقين
الأوروبيين من الزعم أن هذه الفلسفة ليست عربية أو إسلامية بقدر كونها نسخة عربية للفلسفة
اليونانية (١) التى تبناها العرب - الإسلاميون وانتسبت إليهم بكل مزاجها « الفسيفسائى »
(الأفلاطونى - الأرسطى - الأفلاطونى المحدث) . وقد اتساق إلى مثل هذا الأسلوب فى النظر إلى
هذه الفلسفة بعض الباحثين العرب المحدثين ، فزعم أحدهم - مثلاً - أن الروح الإسلامية لم تستطع

أن تفهم روح الفلسفة اليونانية ولم يكن عند واحد من المشتغلين بالفلسفة اليونانية من المسلمين روح فلسفية بالمعنى الصحيح ، وإلا لهضموا هذه الفلسفة وقثلوها واندفعوا إلى الانتاج الحقيقى وأوجدوا فلسفة جديدة .. (٢) ورغم الفارق بين الزعيمين السابقين من حيث كون الأول أثبت الطابع اليونانى الصافى لما انتجه العرب الإسلاميون من فكر فلسفى ، وكون الثانى نفى عنه حتى الطابع لكى ينفى عنه الروح الفلسفى إطلاقاً - رغم هذا الفارق ، يلتقى كلاهما على أسلوب فكرى مشترك ينظر إلى علاقة فكر شعب بفكر شعب آخر نظرة تبسيطية ميكانيكية ، لأن الأول لم يستطع أن يرى فى الفلسفة العربية - الإسلامية سوى الشكل الخارجى للقضايا التى عاجلتها هذه الفلسفة ، وهو الشكل التاريخى للفلسفة العامة حتى القرون الوسطى ، ولأن الثانى لم يستطع أن يرى الروح الفلسفى فى نتاج الفلاسفة العرب - الإسلاميين إلا من خلال القضايا التى عاجلتها الفلسفة اليونانية بعينها ، فلما لم يجدها هى نفسها فى نتاج الفكر الفلسفى العربى - الإسلامى نفى عن هذا النتاج حتى صفته الفلسفية.

إن قضية العلاقة بين فكرين أو فلسفتين ينتميان إلى مجتمعين مختلفين ، قضية معقدة لأنها تخضع لعملية معقدة ترفض مثل هذا النظر التبسيطى الميكانيكى. إنها قضية العلاقة بين الداخلى والخارجى من أشكال الوعى الاجتماعى ، وهى علاقة تفاعل له قوانينه ودialeكتيكه الحركى . إن السمة العامة الأساسية لقوانين هذه العلاقة هى أولاً كونها موضوعية وليست ذاتية إرادية ، وهى - ثانياً - كون الفكر الخارجى لا يمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً فى الفكر الداخلى إلا عبر العلاقات الداخلية لهذا الأخير ، أى عبر القضايا التى يرتبط بها بنسج من العلاقات الخاصة بمجتمع المعين والمحددة بظروف هذا المجتمع وخصائص علاقاته الإنتاجية المادية وتاريخيتها المتميزة . وبما أن أولئك الباحثين فى الفكر الفلسفى العربى - الإسلامى ، لا يأخذون بأسلوب النظر هذا فى فهم دialeكتيك العلاقة بين الخارجى والداخلى من أشكال الفكر ، لم يستطيعوا أن يدركوا منطق الدialeكتيك الداخلى للفكر العربى بعامة والفلسفى منه بخاصة من حيث علاقته بالإسلام ، كفكر وعقيدة ونظام معاً ، أولاً ، وعلاقته ثانياً بقضايا المجتمع العربى - الإسلامى ، التى تميزت بكونها نسيجاً تتداخل فيه ، على نحو بالغ التعقد ، جملة من القضايا الاجتماعية والسياسية مع جملة من القضايا الدينية الاعتقادية والتشريعية . وإذا هم لم يدركوا هذا كله ، لم يستطيعوا أن يدركوا - بالضرورة - منطق دialeكتيك العلاقة بين ما هو داخلى صرفاً فى الفكر العربى هذا ، وما هو خارجى ورد إليه بطريق الفكر الغربى اليونانى أو بطريق الفكر الشرقى الفارسى والهندي . لذلك كله أباح هؤلاء الباحثون لأنفسهم ، بمثل تلك النظرة التبسيطية الميكانيكية ، أن ينكروا



على الفكر العربى - الإسلامى أصالته الفلسفية . ولو أنهم أدركوا هذين المنطقيين : منطق الداخلى ومنطق علاقته بالفكر الخارجى وفق النظر العلمى ، لكان يسيروا عليهم أن ينفذوا إلى جوهر المسألة ، فيعلموا أن الفلسفة اليونانية ماكان لها أن تؤثر أثرها التاريخى المعروف فى الفلسفة العربية - الإسلامية إلا بطريقة الانصهار والتحول التفاعلى الديالكتيكى عبر « آلية » (MECANISM) الفكر العربى - الإسلامى الداخلى ، بحيث اتخذت الفلسفة اليونانية ، عبر هذه العملية ، واقعاً عربياً - إسلامياً ، واكتسبت بهذا الواقع حياة جديدة تختلف عن حياتها اليونانية الصرف (٣)

ثالثاً - أسلوب النظر فى تمايز الثقافات القومية على أساس عرقى (عنصرى) ، وهذا أسوأ الأساليب فى معالجة قضايا الفكر البشرى ، لا من حيث كونه ضرباً من التفكير المثالى وحسب ، بل من حيث كونه - فوق ذلك - ينطلق من أيديولوجية استعمارية فاشية تصنف مراتب الشعوب تصنيفاً هرمياً تحكمه « نظرية الجنس » التى قذفت بها العلم إلى قرار سحيق منذ زمن بهذا الأسلوب العرقى نفسه تعامل مع تراث الفكر العربى - الإسلامى فريق من الباحثين ، مستشرقين وعرباً وشرقيين ، ولايزال فريق منهم يتعامل معه بروح من هذا الأسلوب ، عن وعى عند بعض وعن غير وعى عند آخرين (٤).

رابعاً - أسلوب النظر التاريخى فى التراث . ورغم تفاوت الآخذين بهذا الأسلوب من حيث نوعية المنطلقات المنهجية ، يبقى هناك خط مشترك يجمعهم معاً ، هو رؤية العلاقة بين النتائج الفكرية التراثية والظروف التاريخية التى أنجزت فى إطارها هذا النتاج . ويأتى التفاوت بين هؤلاء من اختلافهم فى فهم هذه العلاقة ومدى ماتتناولها من أبعاد جوهرية أو ثانوية أو شكلية سطحية . على هذا الخط المشترك يلتقى الباحثون الذين يقفون من تراث الفكر العربى - الإسلامى ، ولاسيما الفلسفى منه ، مواقف إيجابية بوجه عام ، تبرز بينها مواقف تتجاوز الصفة العامة فى إيجابياتها إلى المنهجية العلمية بالتحديد ، أى إنها تنطلق من أسس المنهج المادى التاريخى ومبادئه.



هذه أربعة من الأساليب الفكرية التى كانت فى أساس الكثير من الممارسات « المعرفية » فى عصور مختلفة ، لاستيعاب ما أنجزه المفكرون العرب - الإسلاميون فى العصر الوسيط من أعمال فكرية فى ميادين متنوعة : فى أصول العقائد ، وأصول الفقه ، والتشريع ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والأدب الخ .. ولا نزعم أن هذه الأساليب الأربعة هى وحدها المتحكمة بتلك

الممارسات أو بغيرها مما لا يحصى من ممارسات توجهت إلى هذا التراث غير أننا نستطيع القول بأن الأساليب الثلاثة الأولى منها تنطلق من منهج فكري واحد ، رغم اختلافها أسلوبياً ، هو - بصفة عامة - المنهج « اللاتاريخي » ، وإن كان الجامع الأساس بينها هو الموقف المثالي ، ومن هذا الموقف ذاته تنبع أساليب أخرى في النظر إلى كل نتاج فكري ، ومنه ذاته ينبع « المنهج اللاتاريخي » الذي هو الإطار العام لكل أسلوب من هذا النمط قد نكتشفه خلال البحث .

لقد اعتمدنا التصنيف المنهجي أساساً في استقصاء مواقف المؤرخين والباحثين من تراثنا الفكري . ولكن ذلك ليس يغنينا عن الاستعانة بالتصنيف التوضيحي الذي يساعدنا على وضع كل موقف في حدوده الخاصة تاريخياً وفكرياً وأيديولوجياً . وقد سبق أن حددنا في إطار هذا التصنيف ثلاثة أقسام من المؤرخين والباحثين هؤلاء : القدماء ، والمحدثين من العرب والشرقيين ، ثم المستشرقين وسواهم من الغربيين ونتجه الآن إلى رؤية المواقف في حدودها تلك لدى كل قسم على انفراد .

أ- القدماء

تسوقنا موجبات البحث ، لدى استقصاء مواقف القدماء من العرب والشرقيين بعامة ، أن نرجع إلى أبعد الأزمنة حتى الزمن الذي لم يكن التراث فيه قد أصبح تراثاً ، بل كان لا يزال حاضراً عصره ، أي الزمن الذي كان لا يزال يولد فيه هذا التراث ويتوالد ، ينمو ويتطور ، يختصم فيه الناس ويختصم هو معهم ، يثير فيهم المشكلات ويثيرون هم له المشكلات . منذ ذلك العصر ظهرت المواقف المختلفة منه ، أي قبل أن يصبح تراثاً ، واستمرت تظهر المواقف المختلفة ، منذ أن أصبح تراثاً ، في كل مكان من الشرق ومن الغرب ، ولا تزال وستبقى تظهر . ففي زمن نشأته ، وفي أزمان تحولاته من الأشكال اللاهوتية الإسلامية الصرف ، إلى الأشكال اللاهوتية - العقلانية (علم الكلام المعتزلي) ، فألى شكله الفلسفي الأول (الكندي) ، حتى أشكاله الفلسفية الناضجة المستقلة ، من حيث المضمون ، عن الفكر اللاهوتي (بدءاً من الفارابي) في كل زمن من هذه الأزمان كان هذا الفكر - التراث يستثير ويستثار ، يخاصم ويتلقى أنواع الخصومات ، كان « حزيباً » دائماً وتتحداه « الحزبية » دائماً . وفي كل زمن من هذه الأزمان كان موضوع جدل واختلاف ، وكان الجدل والاختلاف فيه شكلاً من أشكال الصراع الفكري والأيديولوجي ينعكس فيه - بحدود متفاوتة - نوع الصراع الاجتماعي والسياسي في هذه المرحلة وتلك من تاريخ المجتمع العربي - الإسلامي .

كانت مسألة القدر أول مسألة خاض فيها الفكر العربي - الإسلامي باتجاه عقلى وعلى أساس

« حزبى » أى على قاعدة فكرية ومن منطلق سياسى (معارضة الحكم الأموى) . ومنذ أخذت هذه المسألة تحتل المركز - المحور بين المسائل الفكرية الكبرى المثارة فى ما بين القرنين الأول والثانى الهجريين (منتصف القرن السابع) ، أخذت المواقف ، المؤيدة والمعارضة ، تبرز فى ساحة فسيحة يحتدم فيها الصراع على أشده ، واستخدام معارضى الفكر القائل بنفى القدر سلطة الدين فى ارباب هذا الفكر ، كما فعل المصعب الزبيرى إذ نقل عن مالك بن أنس (96 - 179 هـ / 714 - 795) إنه قال : « الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام فى رأى جهنم والقدر وما أشبه ذلك .. » (٥) ، ثم بالغوا فى استخدام الدين ذريعة لتشويه فكرة نفي القدر حتى أطلقوا على دعائها اسم « القدرية » رغم أن هذا الاسم جدير أن يطلق على من يقول بنقيض فكرتهم ، أى على الجبرية . كان ذلك بقصد تطبيق حديث منسوب إلى النبی على أهل الاختيار ، وهو الحديث القائل : « القدرية مجوس هذه الأمة » . وقد رفض المعتزلة هذه التسمية قائلين : « .. لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله » (٦) . وهم لا يقولون بذلك .

* * *

ثم يأتى دور المعتزلة لتطوير الاتجاه العقلى وتقعيده على قواعد نظرية مستمدة من لقاحات فلسفية متنوعة المصادر ، وكان معنى هذا الاتجاه المعتزلى انعطافاً فى الفكر العربى - الإسلامى من جهتين : جهة تتعلق بمسألة المعرفة ، وجهة تتعلق بترسيخ فكرة حرية الإنسان أى مسؤوليته عن أفعاله . من الجهة الأولى كان اتجاه المعتزلة خرقاً لحصر مصدر المعرفة فى واحد ، هو المصدر الإلهى ، إذ أضافوا العقل كمصدر آخر للمعرفة حتى فى مسائل العقيدة . ومن الجهة الثانية أقاموا مفهوم العدالة الإلهية على أساس حرية الإنسان ، أى على نفي الجبرية المطلقة التى تحكم كل أفعاله . وهنا ظهرت مواقف الخصومة لهذا الاتجاه من كلتا جهتيه ، واستخدم الدين كذلك وسيلة لكبح التطلعات العقلانية المعتزلية وعرقلة تطورها نحو الفكر الفلسفى المستقل عن أساسه اللاهوتى . وقد توزعت مواقف الخصومة هذه بين تيارات ثلاثة فى عصر النهوض المعتزلى ، هى : التيار السلفى ، والتيار الحنبلى ، والتيار الأشعرى (٧) . وهذه تشترك جميعاً فى خط واحد يتسم بالعداء للجوانب التقدمية النسبية من أفكار المعتزلة .

* لقد تضافرت كل التيارات المحافظة على أقصاء الفكر المعتزلى نهائياً عن صعيد النشاط الفكرى فى منتصف القرن التاسع الميلادى . ومن أعجب ما حدث ، بعد ذلك ، أن غياب المعتزلة عن مسرح النشاط هذا قد اقترن بغياب المصادر الأصلية لأفكارهم غياباً كلياً عن المكتبة العربية .

الإسلامية ، حتى لم يبق لنا من هذه الأفكار إلا ماصاغه خصومهم صياغة مشتتة مجتزأة ، وحرمت الأجيال اللاحقة قراءة الفكر المعتزلى بصورته الحقيقية الكاملة التى صاغها أهل أنفسهم فى مؤلفاتهم ، ولم يصل إلينا من هذه المؤلفات أخيراً سوى كتاب « الانتصار » لأبى الحسن الخياط ، وبعض المخطوطات التى عثرت عليها بعثة مصرية أوفدت إلى اليمن فى سنوات قريبة سابقة ، وصدر فى مصر من هذه المخطوطات بضعة أجزاء من كتاب « المغنى » للقاضى عبد الجبار المعتزلى (٨) . ومن الواضح لنا الآن أن مواقف العداء هذه لم تكن لتبلغ هذا الحد الأقصى من تغليب تراث المعتزلة ، لولا أن العداء موجه أساساً - لنزعة التحرر العقلى الغالبة على هذا التراث .

إن موجة العداء للفكر المعتزلى قد امتدت إلى عصور لاحقة وتشكلت بأشكال من العداء لكل فكر يعتمد النظر العقلى حتى علوم الطبيعة والفلسفة والرياضيات .

يصف المسعودى موقف المحافظين من أهل السنة ، فى خلافة المتوكل العباسى ، حيال الفكر المعتزلى بقوله أنه بالرغم من كون المتوكل « .. من أظلم الخلفاء فقد مدحه أهل السنة واغتفروا له أفعاله لرفعة المحنة (يقصد « محنة » سيطرة الفكر المعتزلى) ورأى له كثير من المحدثين رؤى فى المنام تذكر أن الله غفر له » (٩) . ومثل ذلك مايرويه السيوطى عن موقف الفقهاء والمحدثين من أن أحدهم أباً بكر ابن أبى شيبه جلس ، أيام المتوكل ، فى جامع الرصافة وجلس أخوه فى جامع المنصور وحملوا الناس على الدعاء للمتوكل والثناء عليه (١٠) . ولكن المسألة تجاوزت هذا الموقف إلى مختلف أشكال الطعن بفكر المعتزلة ، بل إلى تشويهه وتحريفه ، كما فعل الاسفرايينى مثلاً ، فى تأويل نصوص المعتزلة بشأن مفهوم العدل عندهم فإن شروهم لهذا المفهوم تضمنت القول بأن قدرة الإنسان مقيدة لقدرة الله (١١) ، وجاء الاسفرايينى (وهو أحد كبار المؤلفين الأشعرين) يفسر هذا القول تفسيراً عجيباً . قال إن كون « العباد » يخلقون أفعالهم ، كما يرى المعتزلة ، إنما يؤدى « إلى أن كل واحد منهم ، كالبقة والبعوض والنحلة والنملة والدودة ، خالق خلق أفعاله ، وليس الله خالقاً لأفعالهم ولا قادراً على شئ من أفعالهم ، وإنه قط لا يقدر على شئ بما تفعله الحيوانات كلها ، فأثبتوا (أى المعتزلة) خالقين لا يحصون ولا يحصرون (..) إنهم مهدوا بذلك طريق القول بالثنائية (١٢) إن تفسيراً كهذا لفهم المعتزلة يتجاهل أن كلمة « العباد » فى نصوصهم تعنى البشر وحدهم ، ويتجاهل كون المعتزلة لا يمكن نسبة « الثنائية » إليهم وهم الذين بلغ من تشدهم فى المحافظة على نقاء مفهوم « التوحيد » حد خوض المعارك العنيفة فى مناهضة أهل الثنائية ، فضلاً عن أهل التشبيه والتجسيم .



الهوامش :

- (١) أصل هذا الزعم يرجع إلى الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان في كتابه « التاريخ العام والمنهج المقارن للغات السامية » باريس ، ج٢ ، ص ١٠ . ونجد مثل هذا الزعم عند المستشرق الألماني شمويلدز في كتاب له بعنوان « بحث في المذهب الفلسفي عند العرب » - باريس ١٨٤٢ ص ٣٠٢ .
- (٢) عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية . القاهرة ١٩٦٥ .
- (٣) راجع حسين مروة : الموقف من التراث في الدين والفلسفة . مجلة « الآداب » ، بيروت العدد الخامس ، السنة ١٨ ، آيار - مايو ١٩٧٠ . أو « دراسات نقدية » ، طبعة ٢ ، دار الفارابي .
- (٤) سنضع في ما يأتي من المقدمة ، نماذج من استخدام هذا الأسلوب العرقي في معالجة التراث الفكري العربي - الإسلامي ، مع مناقشة علمية لهذه النماذج .
- (٥) ابن عبد البر (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠) : « مختصر جامع بيان العلم وفضله » ، ص ٣٠٢ .
- (٦) الشهرستاني : الملل والنحل (ط ٢ ، القاهرة) ، ص ٤٩ .
- (٧) راجع الشهرستاني : الملل ، ج ١ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ . والسيوطي : تاريخ الخلفاء ، ط مصر : ص ١٢٣ . والسبكي : طبقات الشافعية ج٥ ، ص ٢١٧ . وأحمد أمين . ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ١٧٨ . والأشعري ، أبو الحسن : مقالات الإسلاميين ، ج ٢ ، ص ٥٨٤ .
- (٨) راجع علي سامي النشار : نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ، ج ١ ، ص ٦٨٤ .
- (٩) السعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .
- (١٠) راجع السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٨ .
- (١١) راجع التفصيل في الفصل الخامس من القسم الثاني لهذا الكتاب ، الفقرة بعنوان : « حدود القدرة الإلهية » ، ص ٧٦٨ .
- (١٢) الاسفراييني ، أبو المظفر طاهر بن محمد (- ٤٧١ هـ / ١٠٧٨) : التبصير في الدين . القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٨ .

فى مهرجانات السينما العالمية

نساء إيران تتحدثن عن المرأة والقهر والحرية

أمنية فهمى

قد يندهش البعض من أهمية النساء فى السينما الإيرانية ، خاصة أولئك الذين يؤمنون أو يعتقدون أن البلاد الإسلامية تتجاهل المشاعر الخاصة بالنساء وقد يكون هذا الاعتقاد صحيحاً إلى حد ما ، لكن ليس فى إيران ذات الحضارة العريقة ، التى تهتم بالفنون عامة وبالشعر والأدب والزخارف الدقيقة بصفة خاصة ، وكلها فنون تهتم بالمشاعر الإنسانية دون النظر لجنس أو دين أو لون أو هوية.

ورغم اعتراض العائلات الإيرانية على عمل بناتهن فى مجال السينما ، نجد أن ثلث عدد الممثلين الذين ظهرُوا فى الأفلام الإيرانية ، فى أنوار رئيسية أو أدوار مساعدة وعددهم نحو أربعة آلاف شخص خلال الستين عاماً الماضية ، هم من النساء.

وفى مجال صناعة الأفلام يعتبر التمثيل هو الفرع الأكثر جذباً للنساء الإيرانيات ، يليه مجال كتابة السيناريو ، حيث وصل عدد كاتبات السيناريو إلى اثنين وعشرين سيدة ،

ولعل أشهرهن على الإطلاق أنيسة شاه حسيني "و" منيرة رافينبور "و" جاهان خادماللا .
وهن مع غيرهن بدأن العمل فى مجال السينما بعد الثورة الإسلامية ، يليه مجال الإنتاج وتعمل
به ست عشرة سيدة ، بعد أن كان عددهن أكبر فى السنوات التى سبقت الثورة ، حيث دخلت
الكثير من الممثلات مجال الإنتاج وقتها . لكنهن هجرن العمل السينمائى كله بعد ١٩٧٩ .

ورغم أن صناعة السينما فى إيران مازالت تقع تحت طائلة الرقابة والسلطة السياسية
،فموضوعات مثل الحب العفيف أو الخيانة الزوجية أو الصداقات المختلطة ممنوعة نهائياً ، كما
أن ظهور النساء على الشاشة بدون غطاء رأس أمر غير مسموح به حتى لو كانت الممثلة تؤدي
مشهداً داخل دارها أو حتى نائمة فى فراشها ، الأمر الذى أدى إلى إلغاء المشاهد الداخلية
للنساء! كما أن ظهور ممثلة مع ممثل فى كادر واحد أمر غير مرغوب فيه .. أما لو كان الدور
يتطلب أن يؤدي دور زوجين فلا بد أن يكونا كذلك فى الحياة الحقيقية؟! لكن رغم كل ذلك .. فإن
السينمائيات الإيرانيات أوجدن شكلاً سينمائياً خاصاً بهن ، ورموزاً صنعت مدرسة سينمائية
جديدة احتفى بها العالم كله فى السنوات الأخيرة ، وسنتكلم عن هذا الشكل بالتفصيل من
خلال كلامنا عن " سميرة مخملباف " .. الابنة الكبرى للمخرج " محسن مخملباف " ، وواحدة
من أشهر المخرجات الإيرانيات فى الوقت الحالى، بعد أن حصلت على جائزة تحكيم مهرجان
" كان " السينمائى لعام ٢٠٠٢ ، والتى قامت بإخراج أول أفلامها " التفاحة " وعمرها سبعة
عشر عاماً . ويدور حول طفلتين معاقتين ذهنياً قام أهلها بحبسهما داخل المنزل حتى وصلنا
إلى سن البلوغ ، تحت رغم حمايتهما من العالم الخارجى لأنهما ليستا طبيعيتين .. لكن مع
الوقت اقتنع الأب والأم بضرورة خروج الفتاتين لتشاهدا الناس والحياة .. هنا تبدأ الأحداث
الحقيقية للفيلم ، فالفتاتان منبهرتان بكل شئ حولهما ، وعندما وفتتا فى أحد المحال لشراء
الآيس كريم) كانت فرحتهما لايمكن تصورها مما انعكس على المشاهدين .. وقد أصرت
سميرة مخملباف أن تؤدي الفتاتان الحقيقيتان والأهل الأصليون دورهم الحقيقى فى الفيلم ،
دون الاستعانة بأى ممثلين محترفين حتى تصور الفتاتان مشاعرهما بصدق ..

"سميرة مخملباف" المولودة عام ١٩٧٩ هى ابنة الثورة الإسلامية بحق ، لذلك عبرت عن
مشاعرها ومشاعر جيلها بالكامل فى معظم أفلامها ، فهو جيل من الأمل يحاول أن يجد له
مكاناً ، ويحاول أن يغير من الفكر الجامد المحيط به ، لكى يحيا حياة أفضل .. من هذا
المنطلق قامت بإخراج فيلم " السبورة " عام ٢٠٠٠ وتصور فيه مجموعة من المدرسات
الإيرانيات من إحدى القرى البعيدة فى كردستان .. عبرن الحدود العراقية الأفغانية وهن

تحملن ألواح الاربواز السوداء على ظهورهن ، بحثاً عن تلاميذ يريدون أن يتعلموا ويحتاجون لهؤلاء المدرسات .. جرتهن طريقتهن فى التدريس بشكل متنقل إلى أعماق البلاد فى المناطق الجبلية الوعرة حيث الجروب الدائرة..

ويصدم المتفرج فى البداية من مشهد المجموعة التى ترتدى السواد وتشق طريقها بصعوبة عبر الجبال الوعرة ، وهى تحمل على ظهورها الألواح السوداء الكبيرة بشكل مرتجل ، لكن مع الوقت يآلف المتفرج المشهد .. وتصور " سميرة مخملباف " كيف كانت المدرسات يعتقدن فى البداية - عن سذاجة - أن التلاميذ لا يريدون أن يتعلموا ، حتى يكشفن مع الوقت أن أصعب الدروس لم يأت بعد ، وهو كيف يحيا هؤلاء التلاميذ المتمردون وسط كل هذا الدمار والحروب والخوف . هذا المستوى من الوعى أو الفهم يتكشف للمدرسات وللمتفرج فى ذات الوقت من السبورة نفسها .. التى تستخدم الكتابة أساساً لكن التلاميذ يستخدمونها للنوم فوقها أحياناً ، وليسذ الفتحات درماً للبرد القارس ليلاً ، وكنقالة للجرى ووسيلة أو ساتر لإتقاء الرصاص أيضاً!!

أما والدتها المخرجة " مارى ماشكينى " زوجة المخرج " محسن مخملباف " فقد حصلت أيضاً على جائزة خاصة من مهرجان " ترونتو " السينمائى عن فيلمها " يوم أن أصبحت امرأة " ، الذى يجسد حياة ثلاثة أجيال من النساء داخل إيران مابعد الثورة .. وتبدأ أحداث الجزء الأول من الفيلم بالطفلة " هافا " التى ستبلغ التاسعة من عمرها فى نفس ذات اليوم ، وهى بذلك وحسب القانون الإسلامى للبلاد ستصبح امرأة .. لقد بقى أمام " هافا " ساعة واحدة لتبلغ التاسعة وقد أخبرتها والدتها أن عليها أن تودع صديقها الطفل " أحمد " إلى حياة مختلفة ومنعزلة عن عالمه ، و" هافا " حزينة لذلك ولا تفهم له سبباً ولا ترى له ضرورة .. إنهما صديقان متساويان حتى تلك اللحظة ، فماذا حدث ليفير الأمور ؟

أما الجزء الثانى من نفس الفيلم فيصور حول فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ، تدخل سباقاً للدراجات مع بعض زملائها من الذكور المراهقين من نفس عمرها ، متجاهلة غضب أهلها والجيران وسكان الحي ، حيث وجدت فى نفسها مهارة خاصة فى ركوب الدراجات وقررت أن تجرب حظها .. وتظل تبدل على دراجتها بينما الأهل يطاردونها خوفاً عليها من العقاب والفضيحة ، وعندما تغوز فى النهاية متفوقة على أقرانها تشعر بسعادة بالغة وتتلقى عقاب الكبار بصدر رحب لأنها تشعر بأنها حققت ما ظنت أنها قادرة عليه ..

القصة الثالثة تخص امرأة ناضجة ، وتذهب بمفردها فى رحلة طويلة وتظل تقود سيارتها

وهى متوجسة حتى تصل إلى أحد الشواطئ البعيدة المهجورة ، وفى البداية يظن المشاهد أنها تريد أن تهرب من شئ معين أو شخص ما أو أنها تريد أن تفعل شيئاً مخالفاً ، لكن المتفرج يفاجأ بأنها فقط تريد أن تمارس حياتها بصورة طبيعية ، وكل ماتحلم به هو لحظات من السعادة والانفراد والسباحة نون أن تخشى الرقابة أو العقاب !!

بساطة الفيلم بأجزائه الثلاثة ، لاتخفى شعوراً عميقاً بالمرارة ، وإحساساً أعمق بالقيود التى تمارس على النساء داخل إيران .. كما أنه ينقل رسالة واضحة تؤكد أن مصير النساء ومنهن المخرجات والعاملات بالجمال السينمائى مرهون بالحكم الإصلاحي واستمراره من عدمه.

وفى هذا السياق لابد أن نذكر واقعة غربية تعرضت لها الممثلة الإيرانية المعروفة ، جوهرا خرانديش" وهى من جيل ممثلات ما قبل الثورة وتبلغ الخمسين من العمر ، والتى وجهت لها السلطات القضائية تهمة تعكير السلام الاجتماعى ، عندما انفلتت وأظهرت عواطفها بعد فوز المخرج " على زمانى" ويبلغ من العمر عشرين عاماً - وهو من تلاميذ زوجها - بجائزة أحسن مخرج فى أحد مهرجانات السينما بمدينة (يزد) شمال إيران ، وقامت بتقبيله على جبهته أمام الناس . وقد حكم على المخرج بدفع غرامة مالية كبيرة ، أما هى فقد أمر القاضى بحبسها وأضر على تنفيذ الحكم رغم أنها قدمت اعتذاراً رسمياً ، وعلت تصرفها بأنه مجرد تهينة من أم لابنها !!

ومن أجراً الأفلام التى تناولت أوضاع المرأة فى إيران اليوم - إيران ما بعد ثورة فجر الإسلامية - رغم أن مخرجها رجل .. فيلم " دائرة" للمخرج " جعفر بناهى" .. وفيلم " دائرة" يختلف عن أى فيلم إيرانى آخر ويعتبر خطوة جديدة تبتعد بالفيلم الإيراني عن الرموز الشعرية المسيطرة عليه ، ويقترّب من نموذج أكثر مباشرة فى الرواية السينمائية ، وقد حصل على جائزة الأسد الذهبى من مهرجان فينسيا عام ٢٠٠٠ ، والفيلم يستعرض عدداً من القصص المتقاطعة لعدد من النساء اللاتي تعارفن وتصادقن فى السجن .. ويبدأ الفيلم بمشهد قائم عندما تضع إحدى الشابات مولودها الأول وتتبين والدتها أنه طفلة (أنثى) فتخاف من إخبار أهل زوج ابنتها فتهرب من المستشفى تاركة ابنتها تواجه مصيرها البائس عندما يعلم الزوج وأهله بحقيقة المولود ، وفى طريقها للخارج تقابل ثلاث فتيات يبحثن عن عملة معدنية تصلح لإجراء مكالمة من تليفون عمومي .. وعندما تذهب إحداهن لأحد المحال يتم القبض عليها لأنها لاترتدى الشاور (الزى النسائى الإسلامى) رغم أنها خرجت من السجن فى ذات

الطلاق على
الطريقة
الدينامية -
إيران - إنجلترا



الصباح ويكتشف المخرج أن زميلاتها ترغبن في السفر إلى بلدة إحداهن في الشمال حيث لا أحد يعرفهن هناك .. وفي محاولتهن للهرب تتعرضن لمشاكل كثيرة بسبب عدم وجود بطاقة هوية معهن ، وعندما تلجئن إلى زميلة أفرج عنها تتنكر لهن خوفاً من زوجها الذي لا يعرف شيئاً عن وجودها بالسجن .. وينتهي الفيلم بمشهد بالغ الدلالة حيث تضطر إحدى البطلات بالتضحية بابنتها اللطيلة وتركها في الطريق حتى لا يكتشف أهلها أنها حملت سفاحاً ، وتركب سيارة ملاكي مع رجل غريب عنها فقط لتكتشف أنه مدير الشرطة وأن لا أحد قادر على معاقبتها وهي معه ، بينما تتعرض امرأة أخرى للقبض عليها أمام أعين البطلة ، لأنها ركبت مع رجل غريب عنها لاتربطه بها صلة شرعية ، ويتم الإفراج عن الرجل بعد لومه ، لكن يتم اعتقال البطلة التي تعامل بمنتهى المهانة .. وفي السجن نكتشف وجود جميع البطلات بمن فيهن السيدة الشابة التي وضعت طفلة أنثى في بداية الفيلم !!

الفيلم يحمل طابع الرحلة مثله مثل معظم الأفلام الإيرانية .. لقد بدأت الرحلة في المستشفى لحظة الميلاد وانتهت في حجرة الحجز بقسم الشرطة حيث التقت البطلات مرة أخرى ..

« يد في آخر العالم » ورهان الذاكرة

عيد عبد الحليم

الشاعر العماني « سيف الرحبي » شاعر عربي نو صوت شعري متميز يتجلى ذلك عبر دواوينه « نourse الجنون » ، « الجبل الأخضر » ورأس المسافر » ، « مدينة واحدة لا تكفى لذبح عصفور » ، « رجل من الربيع الخالي » و « ذاكرة الشتات » ، و « معجم الحميم » ، « الجندي الذي رأى الطائر في نومه » . حيث يجول « الرحبي » عبر أمكنة الروح متحصناً بذاكرة قادرة على تفتيت اللحظة ببعديها الآن والماضى ، من خلال بصيرة شعرية تنكأ على تفاصيل وجدانية وشعورية وذهنية في بعض الأحيان حيث يتحول المحسوس إلى بنية نصية مجردة ، والواقعي إلى فعل ذهني معتمداً على المزوجة والمراوحة بين الأشياء المحسوسة والمتخيل الشعري ، في أفق خلاق تنتج المحاوراة الجمالية بين مفردات الوجود الإنساني ، وتتضح هذه الرؤية - كثيراً - في ديوانه « يد في آخر العالم » - حيث تصهر معطيات الوجود داخل تفاعلات الذاكرة ، مما يخلق نوعاً من الاحتفاء بالشخص والخصوص الطبيعية والأبعاد المكانية والزمانية ، في تضافر حميم :

هذا الوجه المؤود في قعر غرائزي

في ظلام ذاكرتي

أعرفه جيداً ، أعرف إيماءاته الرشيق

فى الأثير ، أعرف خطوته
التي تخبى الكنز ، ذهاباً وإياباً
من غير معرفة ولا جهل ، حالة ،
الخطر ، المتدلية من لهاة
برق الجنوب المشرع على النافذة
يجعل ملامحه متلعثمة وخجلة كأنما نزل
للحظة من قريته ، مخضباً بالحناء

ويضم ديوان « يد فى آخر العالم » قصيدة واحدة مكونة من ثمانية عشر مقطعاً ،
مذيلة بثلاثة مقاطع منفصلة ، وإن اندرجت فى دفتها الشعرية فى القصيدة الأم ، رغم
أنى أرى أن وضع عناوين للمقاطع الأخيرة قد جاء بلا مبرر .

* * *

وتتمثل الرؤية الجمالية عند « سيف الرحبى » فى محاولة العثور على تكوينات أسلوبية
تصبح - فى حد ذاتها - إيقاعاً فنياً يؤكد على ميكانيزم العمل الشعرى الراهن ، وتنطلق
هذه الرؤية من صنع الحياة الخاصة للشاعر من خلال تيمة الاستقصاء لمفردات الذات
حيث التأكيد الشعرى على حضور « الأنا » بكل تفاصيلها ، وصياغة الأحداث اليومية
وتبيان الاخساس اليومي بالوجود فى إطار من المكاشفة وابتكار اللحظات من الزمن
الدائرى والذى يعنى فى الأساس التأكيد على الزمن النصى بوصفه كينونة لحظية ،
وهذه الكينونة ترتبط عند « الرحبى » باللحظة البدائية ، وبعناصر التوحش ، الذى يأتى
عنده كتعبير مضاد للهاث الواقع الصاروخى المعاصر ، ذلك الواقع الذى يجبرنا على
الانسلاخ من حركته ، لكى نتحرك وفقاً لنداءات الحنين وقوانين التذكر وأناشيد الرغبة
للوصول إلى الجنود الإنسانية الأولى ، وعوالم التلقائية والحرية :

بقايا صباح مازلت أحلم بقنومه
ربما يحمل لى أخباراً
من ربوع المغرب
من بغداد والقاهرة
من بيروت
صباح أحلم فيه بكتابة قصيدة
لاتتسف العالم لكتنها تزيج قليلاً
صخرة الحنين

ويمثل الغياب بنسبة أساسية دالة في كل نصوص الرحى ، مثلما يشكل محوراً أساسياً في حياته ورغباته وفي الأماكن التي عاش فيها ، فهو شاعر لا تكبله الأمكنة - من خلال فعل الإقامة وإن بقي من أطياقها في أعماقه بعض من أوراد النوستولوجيا لتلك الأمكنة ، فصار الحضور مرهوناً بدلالات الغياب فلا يكاد يتجلى الحضور ويأخذ مكانه في اللحظة وفي النص وفي الحياة إلا ويأتي الغياب ليسيطر ويغطف ويهيمن :

كانوا هناك يرتبون أحلامهم

كلما مرت غيمة

أو جناح قطاة

ركلوا الأودية بحوافر أفراسهم

ذابوا في هباء المغيب

كانوا هناك

يرتبون الصباحات على عجل

ويرشقون سماءً جارحةً

بنظرات ملؤها التوجس

والوحشة

مشبودين إلى مدارات

لم يعد لها من حنين

وجبال أفرغ الطير أحشاءه في سفوحها

* * *

وهذا الغياب الذي يغلف نصوص الديوان يأخذنا في دلالاته المتعددة إلى غياب أكبر فهو ليس غياباً ذاتياً - فقط ، بل هو غياب يبرزه الوعي اليقظ في إطار جماعي . يتجلى ذلك في قوله في المقطع الرابع :

الشجر الذابل أمام بيتي / أرقبه كل صباح / وأنا ذاهب إلى العمل / وكل مساء
وأنا قادم من البحر / وقد أرخى سدول أيامه يبأس أمام سطوة الجبال
والمآذن والعمائر المأهولة بالجفاف

ويمخلوقات « زنخة » تفوح من أردانها جثة العالم

المتفسخة منذ قرون ..

هناك إذن صدع مافي العلاقة بين الذات الشاعرة ووسطها المحيط بها حيث تعاني من عدم الانسجام التام مع الوطن والعالم ، فهناك - دائماً - جرح خفي يغذى هذه

العلاقة الشائكة باستمرار ، ومن هنا تتجس العبرة الشعرية ويولد شجن القصيدة ،
وهناك مستويات وتجليات للاغتراب المكاني والروحي، وإذا كان « هولترين » يرى « أن
الروح تحب الهجرة والنسيان » فإن الرحبى يصف روحه بأنها مجروحة وجارحة فى
أن:-

رعايا الذاكرة ينهارون كما تنهار

القمم الثلجية فى مخيلة المغامر،

هكذا دفعة واحدة

يقطع اليمام هديله إلى الأبد

كما ذهبت أنت ذات دهر

أمام البناية الضخمة فى المدينة النفطية،

من غير كلمة ولاتلوحة وداع

يختفى المشهد بكامله

كأنما ابتلعت الأرض

أو اختطفته عنقاء الجبال

* * *

ولعل أحد العوامل المهمة التى تغذى هذا الجرح هو استحضار ونبش الذاكرة
الجمعية العربية مما يساعد على إنكائه فما اختلط من كئيبان ويراكين وجبال يشكل عالم
الأمكنة الأولى حيث الدهشة والطفولة ، ولا يكتفى الشاعر بنقل وسرد تفاصيل تاريخية
بقدر ما ينقل العالم من بنيته الساكنة إلى بنية الدلالات المتحركة فشم رائحة الماضى
البعيد خلف أوار الحلم المحترق ، فتتراكم الصورة الشعرية مشكلة علانقيات النص
بالبيئة بما يرتبط بها من هزائم وجودية لبشر بسطاء فقلوا أحلامهم خلف ظلال
صراعات لا دخل لهم بها :

تلك قصارى أيامهم

ينزل المطر على الصحراء

يصغون إلى حنينهم

ينفجر مع البرق ، صواعق

تقصف الطرقات

لبكاء أطفالهم الذين لم يولدوا

للبهجة تعبر رؤوسهم نحو سمر بعيد

للطفولة

يتسلقون ظلالها فى الردهمة المظلمة

ويبدو أن شاعرنا قد شغل كثيراً بأبجديات الذاكرة الرعوية ، رغم ترحاله الدائم ، فهو لا يريم ولا يستقر فى مكان ، وفى هذا الجو عادة ماتؤسس الذات مفارقتها الأسطورية عبر شعرية هى أقرب إلى الملحمة ، فهو لا يريد - على ما أعتقد - أن يضعنا أمام المكان بتاريخه وناسه ، وإنما يريد أن يجعل هناك نوعاً من الحضور المضاد فى محاولة لتفكيك الزمن ، وهو بمعنى آخر ما يسميه « بلوم » - « السمو المضاد » - حيث يحاول الشاعر أن يوسع من قوة السلف باتجاه مبدأ أعظم من مبدئه « باعتبار أن الذاكرة ليست مبدأ الماضى إلا بوعصفها مبدأ الحاضر الممتد :

لاتحمل فكرة ، كالنظر فى المرأة مثلاً

فتح شباك ، إطلاق نظرة على جبل الأحقاف

وصرعى الأويئة والسراب ،

استعادة كوابيس الباردة

التي أصبحت مجسّ عاده مضجرة

كسائر أوجه الحياة

* * *

والذاكرة - عند « الرحبى » - ليست مرحلة على كل حال ، فهى ذاكرة شجنية مفرداتها الأشباح والموت ، والنجوم المتهالكة ، والغيوم الجريحة ، والهذيان ، والياس ، والندم ، والجزر المستحيلة .. إلخ ، وكان القول الشعرى مرتبط ارتباطاً سيكولوجياً بأبعاد زمانية تستحضر - دائماً - علاقات سياقية لتأسيس أفق احتمالى لتبرير هزائم الواقع الألى التى تحاصر الذات الشاعرة وتجعلها دائماً فى عزلة شبه أبدية :

يد وحيدة تلوح فى البعيد

وحيدة من غير مسافرين

ولأرصفة أو قطارات

يد وحيدة جاثمة بوحشتها

تلوح فى ليل الأجداث

وحيدة فى غيمها الجريح

يد الشاعر أو القرصان

أو بائع اليانصيب

بياض يزهو بالملائكة

أمال موسى (تونس)

بسحر سننسي كالقمام
طافح النشوة كالذكر المؤنث
قل لي كلاماً
قليل الحزن
لأستطيع التنفس
كلاماً تتوخأ في أنهاره ذات المقدس
كلاماً لاينام خالقه
مثمنا
أنام

توحد

طير ضم طيره
أيقظ شهوته النائمة
ورشها بذرة جمر
عاشا صداقة الروح للجسد
ضحك الطائران

قل لي كلاماً
تطير بعد اندلاقه
أسراب الحمام
قطناً مزهواً بالملائكة
قل لي كلاماً
يفتتنى فصوصاً
ويرتب لي هيئة
من مجاز ورمز وحكم
وماء غزير يثير أطرافى
ويرمى بأقواسى
الدالة على اخضرارى
رمحاً في الجسد المستقيم
قل لي كلاماً
يزيد في إعجازى
 ويفصل بينى وبينى

تحاصرني الحجب أمام كل زرقة
ضاحكة

ويتكف البنفسج في عيني ، الملونتين
بالفقد .

ولكن صديقة الماء
أنثاه

مبتلية بأسئلتي
فلم يزدني الأمين
ولم أطمئن

سكاري الصحو

ضرب في الأرض
خلسة

قبل أن يقع في نفسى
من بلونى

ليطوف عالم هرم
ويتنوق الألم من خلايا النحل
وحين أجلسه في قصيدتي
بطلاً

يمشى فوق ماء يتدفق
وناولته الكاس تلو النشوة
في حضرة سكارى الصحو
أدرك خاصرني

كوليد ضجر عتمة البطون
وأطلق ضحكة طويلة

على رسوم الأرض المتحركة
حين سميت

فارس الروح
بارز فحولته

كأنه نائلة
واحترق كله

حتى الشفاعة

حتى احمرت الغرفة
واحترق خشب السرير
فداءً

لخطاب

لا خطاب إلا هو

العيش بثلاثة عناصر

خذ الليل كله

واعطني نجمة الصباح

هدية لصبري

فكم أغرتني قصائد ملكت مافاتني
وأبقتني ضالة

في صمت ذاك الشتاء

اسمع صورتي ترددني
كأهازيج قبيلة

خيامها تناطح السحب

أتحسس رخامي

طرفاً طرفاً

وعند سكرة الألم

قطرة قطرة

فإذا بترابي يرفرف

وأنا الفارقة في مائي

أنادي الأصداف

الحياتان

والقلائد

والسفن التي صيرتها العرائس

غرقاً في البحر

أنا المحترقة

ببرد وحشتي

نفخت في الجمر لأثير ماء السماء .

فقدت نارى

فأمسيت من ثلاثة

أعيش ، عنصري المفقود

نهاية

محمد السيد اسماعيل

لم يكن الأمر على ماتصورنا هكذا
لأننى اكتشفت اللحظة مباغتة
أننى أفقد نصف دمائى
بين الذهاب والرجوع
وأننى أنوء تقريباً .. تحت عشرة
أطنان من الرمال
وليس أمامى سوى أن أنهار .. هكذا
.. مرة واحدة
صانعاً كومة عالية
تصلح أن تكون " تبة "
لاينقصها سوى بعض " الغزاة "
وقطاع الطريق

لم يكن الأمر على ماتصورنا دائماً
أن نخرج - كل يوم - فى بساطة فلاح
كى نكون أول من يرى الأرض
وهى تخرج - لتوها - من قبضة الله
وأن نعود مرة أخرى
كى نعاين كل شئ :
الماشية فى الحظيرة
الأطفال فى الأسرة العطنة
المثذنة العالية التى تخترق الأفق
مثل رمح أسطورى
صوت أبى الذى يشدد ضعفاً
النواة التى تسند البيت



والدى

سميرالأمير

ازای عایزنى ارسم فرح
واعیش كائى بعیش
ماتفكنى الأول عشان اتولد
واشم ورد الحیاة
واعرف بجد ان كنت خلفتنى
والا احنا الاتنين شایلین قرون العبط

كل الكتب ع الرف مرصومة
وعلى النواصى هناك حديد تسليح وصوت مكتوم
طب فك نفسك كده
ورينى ازای حنقدر تقوم
والا الكلام أسهل
عایزنى اتكلم؟

وعایزنى اقوم پدى واصلى العيد
واقرا اللي مقرى ألف مرة واعيد .

ياولدى سيبنى ابص ف مرايه
واخضم ملاحمى من حساب القرايه
واشوف فاضلى كام

لحظة سحر

أحمد سعيد

صرخة ملتذة مكتومة ، تفتersh سكون الأحاسيس البكر ، تسحب منها معالم الطفولة الضئيلة المحنودة ، وترتشف بلا رواء رحيق المغامر السرمدية لهذا العالم ، وجسدها - قبل لحظات - عيونه جامدة تحت الثقل ، الآن يخلق بخفة الأثير.

يا إلهي .. استفاقت من الخدر الرهيب - الذي طالما طاردها وكانت تهرب - على صوت أخيها ، يصرخ معنفا ، قابضا بكفه الثقيل على ديوانها الرومانسي ، الذي استعارته من صديقتها ، خطفه ، طوحه من نافذة الصالون ، تابعت بهلفة وتحسر ، يهبط فوق أسفلت الطريق ، تمرقه الإطارات السوداء ، انسحبت من تعنيفه وضجيجه ، ويشقاوة طلبه ثانوى استجمعت أعصابها ، وتسلكت بخفة إلى حجرتها ويقايا صخبه تتراجع خلفها ، امتدت يدها بالفتاح إلى بوابها ، أخرجت بارتجاف الأجندة الوردية التى يتزاحم فوق غلافها قلوب ملونة تحيط صورة حليم تحتها أهواك ..

انفردت فوق سريرها بأجندتها الوردية التى تحتضن أسرارها الصغيرة ، وبالأثير الباقي لتلك اللحظة احتضنتها ، استرجعت صدى عيون صديقتها وهى ترفع غطاء الدرج المدرسى الداخلى أثناء الحصة ، لمحت صوراً ورسوماً لقلوب بخط اليد تخترقها السهام وحروف بالإنجليزية i love you ، وستيكز لحليم يحتضن

صباح ، أخبرتها ببهجة جسدية هامسة .. أقولك سر .. الى حصل .. لايمكن أوصف لكى .. حزرى .. ياااه .. خاطبتها بهمس خجول يكر ... استطع بفضولها .. مالك بتخبى على .. ايه الى حصل ١٩ عارفة .. ها أقولك .. كانه .. قاطعتها المعلمة المحبة بحاجبها المتضخم ، والزغب الزاحف فوق شفتيها المشققة وخطوط التجاعيد تنتشر تحت عيونها الجامدة .. اطلعى على السبورة .. كنت بأقول إيه .. ارتبكت .. ضغطت المعلمة شفتيها .. كمان روج ياقليلة التربية .. اسبقينى لغرفة النظارة .. ثلاثة أيام رفت واستدعاء لولى الأمر .. رغم ذلك حين قابلتها أثناء الفسحة .. عارفة إيه الى حصل .. دارت حول نفسها بخفة وحيوية .. باسنى .. خفضت رأسها وداخلها يداعبها بالفضول .. لكن .. هووا .. أنت .. ازاي حصل .. عيب .. بس .. حسيتى بايه .. قفزت صديقتها طائرة بجسدها مع الهواء .. قطعت أمها المشهد ، وتلاشى الأثير .. بتذاكرى .. أخوكى قلبه عليكى .. الإمتحانات قريب .. تستمتع بلا مبالاة ... ويعدين شعر آيه .. أقفلت الأجندة الوردية وخبأتها بكفها .. أيوه .. بلاش قلة أدب .. تمتعت بكلمات مبهمه .. طيب .. ترد لو تحكى لأمها عن مشاهد البهجة .. عن الأحاسيس الجديدة التى تحيط بها ، تسألها ببساطة عما يحدث داخلها ... ماما ... استدارت .. أيوه فيه حاجة ، ارتسم شبح الخوف فى الغرفة أن تفضح بهجتها وترى أمها - الرقيقة المتصلبة - الوهج الداخلى الذى أشعل أنوثتها .. ردت .. لا ولا حاجة .. هزها صفق الباب واقتشعر جسدها بتيار الهواء الساخن الذى خلفته الأم ، ظللها الهاجس الذى اقتحمها بتأنيب كلمات المعلمة المحبة ، وهى تتحرك بجلباب رمادى فضفاض ... الحب وسواس من الشيطان .. لا المرأة عورة ، وفتنة للرجال .. أيوه كلها عورة .. والبنت التى تيص لولد تستغفر .. قاطعتها تلميذة عيونها بريئة ، وقلب ذهبى يسكن فوق صدرها ، ويداعب الهواء خصلات شعرها .. طيب لو مسكت أيده .. تبسمن بخجل أجابت بخدة .. ده يبقى من الكباثر .. سامعين ... كبيرة .. خرام .. حرام ... سامعين .. انسحب الهاجس الوحشى ، تتمدد فوق السرير ساهمة بعيونها محاضنة أسرارها تهقر التآنيب المتردد داخلها ، خلف ابتسامته الجذابة ، وملاحقته ، وجرائته حين اعترضها بزيه المدرسى المتائق ، صعد ورامها المينى باص جلس بجوارها ، ارتجفت ، شدت حقيبتها بقوة إلى صدرها وهربت بإرتعاشها عبر الزجاج المشروخ ... يا آنسة .. التفتت .. أنا .. اسمى .. من شهر شفكت فى المجموعة وبنبرة منقطعة مترددة .. كل يوم استناكى على المحطة وأراقبك من بعيد عرفت اسمك .. لمياء .. شدت حقيبتها تكتم صوت الدقات ، خفضت عيونها ومسحت بأطراف كفها حبات الندى المالح فوق جبهتها .. مد يده بظرف ملون مزركش

.. ترددت .. احمر وجهها .. أنا كاتب لك كل حاجة .. دسه فى يدها .. قام .. بأى سلام .. نظرت إليه بفزع .. ابتلعت لعابها .. نظرت حولها ... خباثته فى أعماق الحقيبة ، وضعت فوقه الكتب ، والكراسات والسندوتشات .. نزلت قبل المحطة ومشيت بإرتباك للمدرسة .. طمأننتها صديقتها .. ياعبيطة ماتخافيش .. مفيش أحلى من الحب .. فى الأول كده بتبقى كل حاجة متلخبطة .. شوقى صورته .. شبه عمرو دياب .. قبلتها بحنان وتلوه .. ييموت فى .. تقلبت بقميصها الزهرى محتضنة أجندتها الوردية التى تحوى رسائله وصوره .. جاء صوت الناظرة محذرا البنت اللى تعرف ولد ناقصة تربية .. صبغ الشعر ممزوج .. عدلت حجابها ناظرة اليهن .. قلة أدب ومسخرة .. قلبت حقائبهن ، كسرت المرايا ، ومشابك الشعر الملونة ، وأصابع الراج .

استعادت بهجة صديقتها وهى تستحلب طعم البوسة الخفيفة الأولى فوق شفيتها ، انتفض جسدها بذلك التتميل الذى غيب وعيها بأحاسيس فضية برجفة أول بوسة .
يااه .. لمحت أخيها يتلصص بخفة ممسكاً بالليفون .. اطمأن لنومها المصطنع .. سمعته يهمس .. أيوه .. صدقيني أنا بحبك .. لازم نتقابل بكره .. وحشتيني .. هاشوفك .. انزعج لتقلبها المصطنع .. بكره أقولك .. بحبك .. ياللا باى .. وانسحب بتليفونه الذى يحتكر الرد عليه .. ابتسمت .. طرقت شبعة .. الآن تستوعب ابتهاجهن ، وتستشعر ألق عيونهن ، وهن يحكين عن مقارنتهن المراهقة بين وسامة أصحابهن ، ومصطفى قمر وحسين فهمي وحتى رشدى أباطة .

ناولها الدبة الرمادية وسلسلة ذهبية يتدلى منها أول حرف من اسمها داخل قلب ، وكارت برسوم عصفير وقلوب .. شبك كفه بخجل فى كفها المرتعش ، وخلف الأشجار الخضراء اقترب منها .. تقابلت عيونهما .. وقعت الكتب المدرسية ساحبة معها الوقت المسروق من يوم مدرسى ممل وطويل .. عبر حوائط الحصار .. يا إلهى .. اغمضت عينيها .. وتقلبت بأجندتها الوردية تسترجع ، تستحلب شفيتها لتشبع من ذلك الخير .. تسكنه خلائها ، وانبتقت حبات العرق الأنثوية تغسل حذر الأم .. نفاق أخيها .. ونبرة المعلمة المحجبة .. واطمأننت وهى تعض شفيتها .. وصفها لذلك الوجه والارتعاش بأنها كبيرة .

الواقع والأسطورة

عن دار البستاني للنشر والتوزيع صدر للناقد د. ماهر شفيق فريد كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر الواقع والأسطورة » تضمن عدة مقالات حول خريطة الشعر العربى الحديث متناولاً بعض منطلقات التعبير لدى كل من أدونيس وأحمد عبد المعطى ججازى ونزار قبانى وحسن فتح الباب وفاروق شوشة وصلاح عبد الصبور ومحمد إبراهيم أبو سنة ، بالإضافة إلى دراسة مطولة حول « الشعر المصرى وثورة يوليو » وأخرى عن « شعراء السبعينيات ».

حمام الروح

« مسكو حمام الروح » عنوان الديوان الجديد للشاعر سلامة عيسى والصادر - حديثاً - عن إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافى. تتميز قصائد الديوان بذلك الحس الشفيف الذى يلامس التجربة الإنسانية فى لغة بسيطة تستفيد من المنجز الشعبى - كثيراً -

من أجواء الديوان :

ياترى قلبى ماعدش له مكان

يصاحب الدراويش

يرجع من السفر

أقننى أكون بلا أحزان

لا لإسرائيل

يرصد أيمن إسماعيل فى ديوانه « لا لإسرائيل » أهم قضايا الواقع العربى ، فى إطار من الشعر الساخر يتضح ذلك من دلالة العنوان الرئيسى للديوان والعناوين الداخلية ومنها « هجوم عربى على إسرائيل » و « ياسيد بوش » و « كلمة لكل العالم » و « نشرة الأخبار » ويتضمن الديوان عدة قصائد بالعامية وأخرى بالفصحى، ومن أجوانه :

مديون وخايف من دينه

ياخلق ياللى معتدينه
والحظ منحاش لقينه
أصبحت موكوس م العالى

عذبة والواقع الأردنى

عذبة هى الرواية الأخيرة للأديب الأردنى صبحى فحماوى بعد عدة مجموعات قصصية منها «موسم الحصاد الحزين»، و«رجل غير قابل للتعقيد» و«صبايا فى العشرينات» تتكى الرواية فى بنيتها السردية على لغة حكاية تعبر عن تشابكات الواقع الإنسانى من خلال الربط بين ماهو عام وماهو خاص.

حسنا فى سجن سقراط

صدر للكاتب المسرحى والمترجم أحمد عثمان مسرحية «حسنا فى سجن سقراط» عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ، تلور أحداثها فى إطار تاريخى ، وقد صدر للمؤلف من قبل عدة مسرحيات منها «كليوباترا تعشق السلام» و«عودة البصر للضيف الأعمى» و«الحكيم لا يمشى فى الزفة» و«معيز البهستا» و«زفاف عروس المكتبات» و«هرقل فوق جبل أوتيا» و«السحب» والمسرحيتان الأخيرتان ترجمة عن أرتيوفايش وسوفوكليس.

أمتنا وجوائز نوبل

«أمتنا وجوائز نوبل» هو عنوان الكتاب الذى صدر عن مكتبة الفتح للإعلام العربى للدكتور محمد حسين أبو العلا ، والذى يعالج من خلاله ملاحظات وكواليس الجائزة الأشهر فى العالم ، ومايحيطها من مخاوف تجعلها بعيدة ومستبعدة عن الأمة العربية نظراً لوجود مايسمى بلعب الذكاء الكونى الذى يقوم على الاستقطاب بصورة أولى.

القمع والصورة

عن مكتبة مدهولى صدر كتاب «القمع والصورة- ريجيس دوبريه .. حوار وتدايعات» للدكتور علا طاهر ، والذى يناقش من خلاله علاقة القمع بالصورة ، مؤكداً أن هذا المزيج يعد أكثر خطورة بما فيه من مسخ للقيم الإنسانية وتحويلها إلى شىء غير موجود ، فى ظل

فوضى الثورة الالكترونية التى رغم جمالياتها - يوجد بها جانب سلبي يدمر وعى الإنسان المعاصر.

أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى

عن سلسلة « ذاكرة الكتابة » بالهيئة العامة لقصور الثقافة والتى يشرف عليها الناقد الكبير رجاء النقاش صدر كتاب « أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى » تأليف د. جمال الدين الشبال . ١٩٩١ - ١٩٩٧ والذي يتناول فى كتابه رواد الفكر الإسلامى الذين سكنوا مدينة الإسكندرية أمثال ابن عطاء الله السكندرى ، وأبو العباس المرسى ، وأبو الحسن الشاذلى ، وعبد الله النديم ، والصحابى الجليل أبو الدرداء وغيرهم.

منتهى البدء الأخير

عن سلسلة « إبداعات » صدر الديوان الشعرى الأول للشاعرة فاطمة هزاع ، وتنحاز لغة الديوان إلى بساطة اللغة العامية وجمالياتها الرؤيوية دون غوص فى التهويمات الحدائثية ، محاولة خلق تجربة تخصها ، ومن أجواء الديوان :

« أنا كام ؟ / كام ؟ / بقيت مليون / بقيت ملايين / بقيت بليون / وشايفة بداية الدنيا / وآخر الكون .

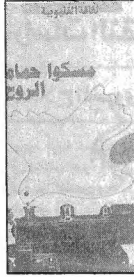
على منصور .. خيال مراهق

تتميز تجربة الشاعر على منصور بتلك الشفافية الشعرية التى تتماس مع المنجز اليومى مضغرة بطابع صوفى ، يأخذ باللغة إلى فضاءات رحبة ، تجلج ذلك عبر دواوينه « الفقراء ينهزمون فى تجربة العشق » و « وردة الكيمياء الجميلة » و « على بعد خطوة » و « ثمة موسيقى تنزل السلام » و « عصافير خضراء قرب بحيرة صافية » و « عشر نجمات لمساء وحيد » ، ويمتد هذا المحيط الإبداعى فى ديوانه الأخير « خيال مراهق » والذي صدر على نفقته الخاصة.

من أجواء الديوان :

بينما لا يعرف الواحد هل يبكى

أم يبكى !!



بينما الدنيا كذلك / يحدث أن يفاجأ
نبت بزقة مطر / أو ترتعش روح
على رنين هاتف .

حكايات وردة

صدر للكاتب محمد الدمنهري مجموعة قصصية للأطفال تحت عنوان « حكايات وردة ». بتقديم للشاعر صلاح اللقاني والذي أشار فيه إلى أن الدمنهري مشقف وصديق للمثقفين وأنه يعتز بالصفة الثانية أكثر من اعتزازه بالصفة الأولى .
تتضمن المجموعة عدة قصص منها « تعالى نرسم قرص الشمس » و « أمنيات وردة » و « إجابة السؤال » و « شقاوة » تتميز القصص ببراعة اللغة وفطرية الرؤية.

أحلام الطيور

« أحلام الطيور » أحدث إصدارات الشاعر على حسن الجمال وقد صدر له من « همسات قلب » ، تتضمن الديوان عدة قصائد منها « قالت » و « لماذا اللقاء » و « نشيد الحياة » وغيرها .
تغلف معظم القصائد رؤية رومانسية عبر لغة شفافة تستفيد - كثيراً - من منجز القصيدة التقليدية.

نحو مؤسسة للدراسات النقدية والفكرية

د. صلاح السروى

لقد تعاطف الإحساس فى الآونة الأخيرة بوجود أزمة خانقة فى الثقافة المصرية ، بحيث بدت هذه الثقافة وقد خلت من الأسماء الكبيرة التى يمكنها أن تشغل الفراغ الذى خلفه العمالقة الراحلون أمثال شوقي وصلاح عبد الصبور والحكيم وإبريس وحقى ونعمان عاشور وطه حسين والعقاد وشكرى عياد ومنور وزكى نجيب محمود .. إلخ ، فضلا عن انتاج أعمال إبداعية فنية وفكرية - كبيرة ومحورية ، كالتى شغلت الرأى العام الثقافى (بل والشعبى فى أحيان كثيرة) " كهودة الروح " و " الثلاثية " و " قنديل أم هاشم " و " الحرام " .. و " الشعر الجاهلى " و " العبقريات " و " مقدمة فى فقه اللغة العربية " و " النقد المنهجى عند العرب " .. إلخ الخ .

لقد أدى هذا الفراغ إلى فقدان الثقافة المصرية لروحها الريادى فى العالم العربى ، فترجع هذا الدور لصالح مراكز ثقافية أخرى بديلة نشأت لملء هذا الفراغ - سواء فى المغرب أو المشرق - ورغم أن هذه المراكز لم تستطع تعويض الدور المصرى ، إلا أنها استأثرت بدوره بالاهتمام ، حتى أضحت تمثل المنفذ الضرورى المتاح للمعرفة العصرية (خاصة فى مجالى النقد والدراسات الفكرية) بالنسبة لشباب المثقفين والباحثين من المصريين !!!

ويمكن ملاحظة أن الأزمة - وإن طالت كافة مناحى الحياة الثقافية فى مصر - إلا أنها قد تركزت فى مجالى النقد الأدبى والفكر النظرى ، وبقدر أقل فى مجال الإبداع الألبس (وحتى هذا القدر كان المسئول الأول عنه بالدرجة الأولى تخلف النقد والفكر النظرى) . بل إن الإبداع - وبخاصة الروائى منه - يكاد يحقق طفرة كبيرة (رغم أنها كمية أكثر منها كيفية) يعجز النقد عن ملاحظتها ، فضلا عن التنبؤ لها ، وإنتاج فكر نقدى ناتج عن خبرتها الجمالية ، دون الحاجة إلى إستتساخ باهت ومشوه ومستقل للفكر النقدى الغربى . ولست هنا ضد الفكر النقدى من أية جنسية إلا أننى ضد عدم الندية والنزعة الاستهلاكية التى تؤدى إلى هذا الاستتساخ الباهت المشوه .

إن أزمة النقد والدراسة النظرية (وهما مرتبطتان على نحو وثيق للغاية) لتجلى على أنصع وجه ممكن فى العجز عن المتابعة ، والتعامل الجزئى المبتسر مع المشهد الإبداعى واتجاهاته الجمالية وتحولاته الدلالية . وقد تكون هذه الوضعية ناتجة عن أزمة اقتصادية خانقة حالت دون توافر النقد على الإخلاص له (وهو لاشك يعد عملا شاقا وغير مربح من الناحيتين المادية والأدبية) وقد تكون ناتجة عن الكسل العقلى والإحجام الفكرى الذى انتاب العقل المصرى والعربى إثر موجة التكفير الأصولية الأخيرة . إلا أنها بلا شك ناتجة أيضا (حسبما تقدم فى الفقرة السابقة) عن فردية وعشوائية الممارسة النقدية والنظرية ، بما يؤدى إلى العجز الصمتى عن الملاحظة والمتابعة لهذا الكم المتعاظم من الإصدارات الإبداعية المتتابعة ، فلا يتسنى إلا التناول الانتقائى العشوائى (أو التناول لأصغاب أخرى ذاتية) لأعمال قد لاتمثل أهمية خاصة فى المشهد الإبداعى - الثقافى ، بما يؤدى إلى حرمان أعمال أخرى ، ربما كانت أكثر أهمية ، من المتابعة والاهتمام . وهو ما يؤدى فى النهاية إلى الخروج بنتائج واستخلاصات جزئية وتبسيطية ، وبعيدة عن حقيقة المشهد فى حركيته وتنوعه وتعدده (فضلا عن الأثر المدمر الذى يخلقه التجاهل على كثير من الموهوبين الحقيقيين من المبدعين والجادين)

ومن هنا تتضح أهمية إيجاد مؤسسة بحثية أو مركز للدراسات النقدية والنظرية يمكنه أن يعمل بشكل جماعى ومنهجي ومنضبط - على رصد الظاهرة الثقافية (الفنية - الأدبية والفكرية) ومتابعتها بالدرس التطبيقى والتظهير لظواهرها عبر بحوث حصرية - بيبليوجرافية وبيوجرافية وأنطولوجية - قادرة على تقييم أداء هذه الظاهرة بما يمكن أن يتبع معرفة على قدر من الشمول والبانورامية كشرط جوهري للتشخيص والتطوير والإثراء .

